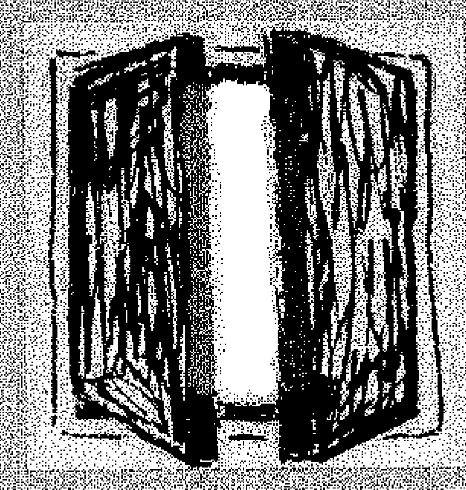
ثقافتنا

بين الانفتاح والانغلاق

د. يوسف القرضاوي



ثقافتنا

بين الانفتاح والانغلاق

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

د. يوسف القرضاوى

ثقافتنا
بين الانفتاح والانغلاق

دار الشروق

مقدمة

ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، وصلاة وسلاما على خاتم رسلك وأنبيائك، الذي مننت به على المؤمنين، إذ بعثته رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وارض اللهم عن آله وصحبه، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون.

(أما بعد)

فلا زالت (المسألة الثقافية) هي الشغل الشاغل للناس، منذ بواكير النهضة إلى اليوم.

ولم يبرح الجدل مستعرا حول طبيعة (الثقافة) ما هي؟ وما حقيقتها؟ وهل تقتصر على الجانب المعرفي أو تتعداه إلى سائر جوانب الحياة الإنسانية؟ وهل هناك فرق بين الثقافة والحضارة؟

وهل هناك ثقافة كونية أو تظل لكل أمة ثقافتها الخاصة بها؟

وما هي إذن ثقافتنا المعبرة عنا: أهي عربية أم إسلامية أم هما معا؟

وهل الثقافة (الإسلامية) هي الثقافة (الدينية) أو هي أوسع مدى منها؟

وما خصائص ثقافتنا العربية الإسلامية؟

هل هذه الثقافة ثقافة منغلقة، كما قد يتوهم المتوهمون، أو يشيع ذوو الهوى؟ أو هي ثقافة منفتحة على الثقافات؟

وهل معنى ذلك أن هناك انفتاحا مقبولا، وانفتاحا محذورا؟

وما المراد من الانفتاح المحذور؟ وما أنواعه؟

عن هذه الأسئلة المهمة تجيب هذه الدراسة الموجزة، محذرة من ثلاثة أنواع من الانفتاح: الانفتاح قبل التهيؤ والنضج، والانفتاح المتساهل في الأخذ والاقتباس، والانفتاح المبهور بالغير. مبينة أن الانفتاح الحق هو الذي يبقي على هوية الأمة وثوابتها، ويأخذ ما يأخذ من غيرها، دون أن يمس جوهرها.

ومهمة هذه الدراسة أن تؤصل هذه المعاني تأصيلا شرعيا، فلا نعلق كلاما في الهواء غير مسنود بالأدلة التي تشد أزره. بل نعتمد - أول ما نعتمد - على كتاب الله وعلى سنة رسوله الموثقة من مصادرها، مستأنسة بتراث الأئمة، وبأقوال أعلام الأمة، متبعة (سبيل المؤمنين)، ومبتعدة عن (سبيل المجرمين).

كما ختمت الدراسة بذكر نموذجين عمليين من نماذج الانفتاح في ثقافتنا، وإن كان كل منهما له شخصيته وتوجهه، أحدهما من المشرق الإسلامي، وهو الإمام أبو حامد الغزالي، والثاني من المغرب الإسلامي، وهو الإمام أبو الوليد بن رشد الحفيد.

وهذه الدراسة تكملة لدراستنا السابقة (الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة) ومستفيدة منها أيضا.

وإني لأرجو أن تفيد هذه الدراسة القارئ العربي والمسلم وتزيد من وعيه، وخصوصا في هذا الوقت، الذي تحتدم فيه المعركة، ولا سيما في بلدنا العزيز مصر، بين المثقفين الإسلاميين والمثقفين العلمانيين، منذ نشرت (وزارة الثقافة المصرية) على نفقتها: رواية القصَّاص السوري حيدر حيدر، المسماة «وليمة لأعشاب البحر» وفيها ما فيها من استخفاف بذات الله تبارك وتعالى وبرسله وكتبه، ولا سيما محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم، وهو ما أثار الشارع المصري، الذي انفجر فجأة، لأمور تراكمية، احتملها الشعب على كره ومضض، حتى أدت إلى الانفجار مؤخرا. والشاعر العربي يقول:

وإذا الذئاب استنعجت لك مرة ... فحذار منها أن تعود ذئابا!

ولقد أنطقت هذه القضية (الأزهر) الذي طال سكوته، فلما تكلم أسمع العالم كله، لأنه تكلم بصوت جهير، وتكلم كله: مجمع بحوثه، وشيخه الأكبر، ومدير جامعته، وطلابه وطالباته، مما يدلنا على أهمية هذه المؤسسة، وضخامة دورها في مصر، وفي العالم العربي والإسلامي، حين تؤمن بغايتها، وتستبين طريقها. وهذا ما تحسب له القوى المعادية ألف حساب، وتجتهد أن تحول دونه. ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

لقد أفرزت هذه المعركة الأخيرة ظاهرة لا يحسن السكوت عليها بحال، فقد بدا الأمر، وكأن الثقافة في مواجهة الدين، والدين في مواجهة الثقافة. وهذا أمر ينذر بخطر كبير، وشر مستطير، إذ المفروض أن تكون ثقافة الأمة في خدمة دينها، لا في مواجهته، وإلا مزقت الأمة من داخلها شر ممزق.

ونحن حين نقول (الدين) لا نعني الدين كما يفهمه الجامدون، ولا كما يفهمه الجاحدون، فما أضاع الدين إلا جامد وجاحد، كما قال شكيب أرسلان رحمه الله. إنما أعني بالدين: الإسلام كما نزل به القرآن، وكما دعا إليه الرسول الكريم، وتلقاه عنه صحابته، وكما فهمه تيار الوسطية الإسلامية رسالة شاملة متكاملة متوازنة، ترحب بالحوار، وتؤمن بالتجديد، وتنير العقل والقلب، وتسعد الفرد والمجتمع، وتجمع بين حسنتي الدنيا والآخرة.

وهذا ما نؤمن به، وندعو إليه، ونحيا له، ونموت عليه. ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

يوسف القرضاوي

الدوحة في ربيع الأول سنة ١٤٢١هـ
حزيران (يونيو) سنة ٢٠٠٠م

ثقافتنا .. مفهومها وخصائصها

- مفهوم الثقافة
- ثقافتنا بين الثقافات
- بين الثقافة الدينية والثقافة الإسلامية
- خصائص ثقافتنا العربية الإسلامية

ثقافتنا.. مفهومها وخصائصها

أهمية هذا البحث في عصر العولمة:

في هذا العصر الذي يسمونه (عصر العولمة) يتحدث الناس كثيرا عن (الانفتاح) و(الانغلاق) فمن شأن (العولمة) أن تزيل الحواجز، وتقرب المسافات وتذيب الفوارق، سواء أكان ذلك في دنيا الاقتصاد أم في دنيا الثقافة. وهذا يعني (الانفتاح) دون حدود أو ضوابط، في هذا العالم الجديد.

على حين يتخوف آخرون من مغبة هذا الانفتاح المطلق المنطلق، الذي ينتصر فيه عادة القوي، ويسحق فيه الضعيف، فيخشى هؤلاء من العرب والمسلمين على ذاتيتهم وأصالتهم وثقافتهم المتميزة، أن تقتلعها الرياح الهوج باسم العولمة، فهم لذلك ينادون بالتقوقع على النفس، والانكفاء على الذات، وإغلاق الأبواب أمام هذا الغازي الجديد الكاسح. ويرون السلامة في الفرار من المواجهة، ما دمنا لا نملك أسلحة المقاومة المكافئة لما يملكه الغزاة الجدد، ولا سيما أن هذا الغزو يتواكب مع ما تريده دولة الكيان الصهيوني من (تطبيع) يشمل (التطبيع الثقافي).

ترى أي الفريقين أقوم قيلا، وأهدى سبيلا: دعاة الانفتاح المطلق، أي فتح الأبواب على مصاريعها أمام الثقافات ما طاب منها وما خبث، أم دعاة الانغلاق، المطلق، أي إغلاق الأبواب كلها، هربا من اللقاء والمواجهة؟

أم هناك طريق وسط بين الطرفين، يسمح بانفتاح منضبط، يأخذ خير ما عند الآخرين، ويستفيد من تجاربهم، ويلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت، ويعطيهم كذلك مما لديه من قيم ومفاهيم وشرائع وتجارب، وممارسات حضارية، فهو يأخذ ويعطي، ويستورد ويصدر، ويستقبل ويرسل؟

أعتقد أن هذا المنهج الوسطي هو المنهج المرضي، وهو الذي نحاول أن نلقي بعض الضوء عليه في دراستنا هذه، وتأصيله من الناحية الشرعية، حتى يحوز الرضا والقبول من الأمة، التي رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وبالقرآن إماما.

ولكن قبل أن نتحدث عن ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، ينبغي لنا أن نحدد: ماذا نعني بثقافتنا؟

مفهوم الثقافة

وقبل أن نتحدث عن ثقافتنا وماذا نعني بها، لا يسعنا إلا أن نكتب سطورا نلقي بها شعاعا على معنى كلمة (الثقافة) ومفهومها، والمقصود منها، وقد باتت من الكلمات أو المصطلحات الشائعة على الأقلام والألسنة، وهي من الكلمات الحديثة، فلم يكن لها هذا المفهوم في تراثنا الأدبي.

ولهذا عرفها (المعجم الوسيط) الذي أخرجه مجمع اللغة العربية بأنها العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها. ونص على أنها (محدثة).

وبالرجوع إلى معاجم اللغة يتضح لنا أن مادة (ث ق ف) تدل على الحذق والفطنة أو التعديل والتقويم.

يقال: ثقُف الرجل أي صار حاذقا فطنا فهما. وقالوا: رجل ثقف لقف: أي راو شاعر رام، وقال ابن السكيت: رجل ثقف لقف، إذا كان ضابطا لما يحوَيه قائما به.

وقالوا أيضا: امرأة ثقاف (على وزن سحاب) أي فطنة. ومنه قول أم حكيم بنت عبد المطلب لأم جميل بنت حرب عندما حاورتها: إني حصان فما أكلّم، وثقاف فما أعلّم.

والثقاف (بكسر الثاء): ما تسوّى به الرماح، وهي حديدة تكون مع القوّاس والرمّاح يقوّم بها الشيء المعوج. يقال: ثقفه تثقيفا: سواه وقومه، ومنه: رمح مثقف، أي مقوّم مسوّى.

وثاقفه مثاقفة وثقافا، فثقفه: غالبه فغلبه في الحذق والفطانة وإدراك الشيء وفعله، وهو مستعار كما قال الراغب.

قال شارح القاموس: ومن المجاز: التثقيف: التأديب والتهذيب، يقال: لولا تثقفك وتثقيفك ما كنت شيئا، وهل تهذبت وتثقفت إلا على يدك؟ انتهى.

ومن معنى التأديب والتهذيب ومعنى الحذق والفطانة والفهم، أخذ المحدثون كلمة (الثقافة) وما اشتق منها، وتحدث من تحدث عن أزمة المثقفين، وعن التراث الثقافي، وعن الغزو الثقافي، أو الاستعمار الثقافي، وأنشئت مؤسسات، بل وزارات في عدد من الأقطار للثقافة.

ومع شيوع كلمة (الثقافة) نراهم قد اختلفوا في تحديد مفهومها، ككثير من المصطلحات المعاصرة.

فهناك من يقصر (الثقافة) على (الجانب المعرفي) في الحياة، أي ما يتعلق بالعلم والفكر والأدب والفن. ولعل هذا ما يفهم من تعريف المعجم الوسيط الذي ذكرناه.

وهناك من يوسع مفهوم الثقافة بحيث لا تقتصر على الجانب المعرفي والفكري، بل تشمل الجانب الوجداني الذي يعنى به الفن، والجانب الروحي الذي يعنى به الدين، والجانب العملي أو السلوكي الذي تعنى به الأديان والأخلاق، بل تشمل الجانب المادي أيضا من الحياة.

فالثقافة: أفكار ومعارف وإدراكات، ممزوجة بقيم وعقائديات، ووجدانيات، تعبر عنها أخلاق وعبادات، وآداب وسلوكيات، كما تعبر عنها علوم وآداب وفنون متنوعات، وماديات ومعنويات.

قال صاحبي: هل تعتبر بذلك (الأكل) مثلا ثقافة؟

قلت: إذا كان المقصود بالأكل البلع والمضغ والهضم، فليس من الثقافة في شيء، فهذا أمر يشترك فيه الإنسان والحيوان، بل الحيوان متفوق فيه على الإنسان. فالحيوان قطعا أوسع بطنا، وأكثر أكلا من الإنسان.

ولكن إذا قيل للإنسان «سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»[1] وكل من الحلال الطيب، ولا تأكل خبيثا مما حرم الله عليك، وكل في إناء مباح لا في ذهب

---

(١) نص حديث نبوي متفق عليه.

ولا فضة، وكل عندما تجوع، وإذا أكلت فلا تسرف. فما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه. وإذا فرغت من طعامك فقل: الحمد لله. إلى آخر هذه الآداب، فهنا يصبح الأكل ثقافة. وليس مجرد عملية حيوانية.

وهكذا (المشي) فالإنسان يمشي، والحيوان يمشي، كما قال القرآن الكريم: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ (النور: ٤٥).

ولكن إذا قيل للإنسان: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ (لقمان: ١٩) سواء فسرت بمعنى اجعل لمشيك مقصدا وهدفا، أو اعتدل في مشيك، لا تسرع إسراع الحمقى، ولا تبطئ إبطاء المتماوتين، وكن من عباد الرحمن ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (الفرقان: ٦٣). ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٧).

فهنا يغدو المشي ثقافة.

وكل الأمور المادية تنقلب إلى ثقافة إذا ارتبطت بقيمة وهدف نبيل، ومعايير وآداب ترقى بها، وتنقلها من المعنى الحيواني إلى الأفق الإنساني.

صحيح أن الجانب المعرفي والفكري له أولوية على غيره، على أساس أن الفكر يسبق الحركة، وأن العلم يسبق العمل، وأن حركة الإنسان لا تستقيم إلا إذا استقام فكره وتصوره، ومن هنا يقدم الدين الإيمان والعلم على العمل، ولذا كان أول ما نزل من القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (سورة العلق: ١) لأن القراءة مفتاح العلم، وهو مقدم. ثم نزل بعدها ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ .. ﴾ (المدثر: ١-٧) فأمر بالعمل بعد العلم.

ونحن في استعمالنا العادي نبرز الجانب المعرفي ونقدمه، فإذا رأينا إنسانا قارئا متنوع القراءة، ملما بما يجري في الحياة، غير جاهل بالتراث، نقول عنه: إنسان

مثقف. ولا نصف بهذا من كان بارعا في تخصصه، متفوقا فيه، ولكنه إذا خرج من دائرته، وجدته أشبه بالعامي.

ولذا قيل: المتخصص من يعرف كل شيء عن شيء، والمثقف من يعرف شيئا عن كل شيء.

وقديما كانوا يقولون هذا عن العالم والأديب. فالعالم هو المتخصص، والأديب هو المثقف بلغة عصرنا.

ولا يزال كثيرون إذا أطلقوا كلمة (الثقافة) يريدون بها ما يتعلق بالجانب الفكري والأدبي، وعلى ضوء هذا صدرت مجلة (الثقافة) في مصر، التي كان يرأس تحريرها العالم المفكر الأديب الأستاذ أحمد أمين. واستمرت سنين طويلة، ثم توقفت.

والأستاذ الفيلسوف الدكتور زكي نجيب محمود حينما أصدر كتابه (ثقافتنا في مواجهة العصر) كان يعني في الدرجة الأولى الجانب الفكري والأدبي أي الجانب المعرفي.

ونحن حينما أصدرنا كتابنا (ثقافة الداعية) كنا نقصد هذا المعنى، ولذلك تحدثنا عن ستة أنواع من الثقافة يفتقر إليها الداعية، وتعتبر زادا ضروريا له، وأدوات لابد منها لبيان دعوته وإيضاح فكرته، وهي: الثقافة الدينية، والثقافة اللغوية والأدبية، والثقافة التاريخية، والثقافة الإنسانية (ما يتصل بالعلوم الإنسانية والاجتماعية) والثقافة العلمية، والثقافة الواقعية.

وكذلك حينما تحدثنا في كتابنا (الفتوى بين الانضباط والتسيب) عن (ثقافة المفتي) اللازمة لمن يتصدى لوظيفة الإفتاء، كنا نعني بها هذا الجانب.

ومع أولوية جانب العلم والمعرفة، فهذا لا يجعله وحده هو الثقافة، بل نقول: هو بابها ومدخلها، والفصل الأول في كتابها.

ويتساءل كثيرون عن الفرق بين الثقافة والحضارة، وقد حاول البعض أن يفرق بين الكلمتين بأن الثقافة لا تشمل الجانب المادي، وقد رأينا أنها تشمله بالمعنى الذي شرحناه.

وفرق بعضهم بأن الثقافة تتعلق بالجانب الفردي، والحضارة تتعلق بالجانب الاجتماعي، وهذا تفريق غير مسلم، فالثقافة كما تتصل بالفرد، تتصل بالمجتمع والأمة، ولهذا يقول الكتاب والباحثون: الثقافة العربية، والثقافة اللاتينية، والثقافة السكسونية، والثقافة الأمريكية، والثقافة اليابانية والصينية، إلى آخره. نجد النسبة هنا إلى أمم، وليس إلى أفراد.

وقد تنتسب الثقافة إلى أديان، كما يقال: الثقافة الإسلامية، والثقافة اليهودية، والثقافة المسيحية، والثقافة البوذية.. والثقافة الشيوعية. وهذه ضد الأديان، ولكنها كما سمى بعضهم هذه الأيديولوجيات الوضعية «أديان بغير وحي».

والواقع أنه لا يكاد يوجد فارق في الاستعمال المعاصر بين الثقافة والحضارة، فكل واحدة من الكلمتين توضع مكان الأخرى.

ثقافتنا بين الثقافات

ولا شك في أن المقصود بثقافتنا في هذا المجال هي الثقافة العربية الإسلامية، وهي الثقافة المعبرة عن هوية الأمة وفلسفتها ونظرتها الكلية إلى الوجود، وإلى المعرفة، وإلى القيم، وبعبارة أخرى: إلى الله والإنسان، والكون والحياة. أو إلى المبدأ والمصير، والغاية والرسالة.

والأمم بلا ريب تختلف في ثقافاتها اختلافًا كبيراً، فمنها ما تتجه ثقافتها إلى الروح، ومنها ما تتجه إلى العقل، ومنها ما يتجه إلى الحس أو المادة، ومنها ما يجمع بينها جميعًا. من الثقافات ما يتصل بالأرض، ومنها ما يتصل بالسماء، ومنها ما يتصل بالسماء والأرض معًا.

منها ما يعترف بالله ربًا خالقًا، ولا يعترف به إلهًا معبوداً، ومنها ما يعترف به معبوداً ولا يعترف به حاكمًا أعلى، من حقه أن يأمر وينهى ويشرع لعباده، ويحل لهم ويحرم عليهم. ومنها ما يجمع لله بين هذه الأمور كلها، فهو لا يبغي غير الله ربًا، ولا يتخذ غير الله إلهًا، ولا يبتغي غير الله حكمًا.

ومنها ما لا يعترف لله بشيء من ذلك إنما يؤله نفسه، أو يؤله أحدًا من جنسه أو من غير جنسه، ويزعم أن الله لم يخلق الإنسان، وإنما الإنسان هو الذي خلق الله، أي اخترع فكرة الألوهية ليخدع بها نفسه، أو يخدع بها الآخرين ويلهيهم عن المطالبة بحقوقهم المنهوبة بما يوعدون به في الآخرة المزعومة، وبهذا تخدر الشعوب والجماهير بأفيون الدين.

ثقافتنا عربية إسلامية:

إن ثقافتنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ ثقافة متميزة، سنتحدث عن خصائصها بعد قليل. ولكن كثيرين يسألون عن هوية هذه الثقافة: أهي عربية أم إسلامية؟

وهم يقيمون صراعًا متوهما بين العروبة والإسلام، وكأن إثبات أحدهما ينفي الآخر بالضرورة.

وهذا غير صحيح، فإن العربية هي لسان الإسلام، لسان قرآنه وسنة نبيه، ولسان عبادته، ولسان التفاهم المشترك بين علمائه، والعروبة هي وعاء الإسلام، ورسول الإسلام عربي، وصحابته الذين تربوا في حجره عرب، ومنطلق الإسلام من أرض العرب، ومساجد الإسلام الكبرى، التي لا تشد الرحال إلاَّ إليها، كلها في أرض العرب.

والإسلام هو الذي أخرج العرب من الظلمات إلى النور، وحولهم من رعاة غنم إلى رعاة أمم، وهو الذي علمهم من جهالة، وجمعهم من فرقة، وأورثهم ممالك الأكاسرة والقياصرة، وجعلهم بنعمته إخوانًا، وجعل لهم ذكراً في العالمين.

الإسلام هو الذي جعل العرب (أمة) بعد أن كانوا قبائل متناحرة، وجعل لهذه الأمة رسالة وحدت أهدافهم وآمالهم، وجندت طاقاتهم في سبيلها.

ومن الملاحظ أن كلمة (العروبة) في مصر وفي بلاد المغرب العربي كلها، ممتزجة بالإسلام امتزاج الجسم بالروح، فلا يكاد يفرق الفرد العادي بينهما.

إذا قلت: اللهم انصر العرب، تساوي عنده: اللهم انصر المسلمين، والعربي عند المغاربة يعني المسلم.

وقد عبر عن هذا المعنى الشاعر المصري المعروف محمود غنيم في قصيدته الشهيرة (وقفة على طلل) فقال:

إن العروبة لفظ إن نطقت به   فالشرق والضاد والإسلام معناه

والقوميون العرب الأقحاح يجعلون أساس العروبة اللغة والتاريخ، واللغة هي لغة القرآن، والتاريخ الحي للعرب هو تاريخ الإسلام.

ومن هنا لا نرى تناقضًا بين العروبة والإسلام، ولا نجد أي غضاضة في وصف ثقافتنا التي نعتز بها والانتماء إليها: أنها ثقافة عربية إسلامية معًا ـ لا نقول هذا مجاملة للإسلام، ولا تملقًا للعروبة، بل هي الحقيقة الناصعة التي دلت عليها كل الدلائل والبراهين.

هي ثقافة عربية، بحكم اللغة الأساسية التي كتبت بها، وعبرت عنها.

بحكم روح القرآن العربي السارية في جنباتها، المؤثرة في أعماقها.

بحكم تأثير البيان النبوي العربي والأسوة المحمدية في مسيرتها.

بحكم أن العنصر العربي كان هو العنصر الأول في تكوينها.

بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها، ومنطلق دعوتها.

وهي مع ذلك، وقبل ذلك: ثقافة إسلامية بلا ريب.

بحكم الأهداف التي تتوخاها، والحوافز التي تدفعها.

بحكم الفلسفة والتصورات التي تحركها، وتفجر طاقاتها.

بحكم الأجناس والعناصر الإسلامية المختلفة، التي شاركت فيها عربًا وعجمًا.

بحكم الرقعة الواسعة التي كانت مجالاً لها من الصين شرقًا إلى شواطئ الأطلسي غربًا.

فالصواب ـ إذن ـ أن نقول: ثقافة عربية إسلامية، وحضارة عربية إسلامية، وبذلك ننصف الحقيقة، وننصف العروبة والإسلام جميعًا.

بين الثقافة الدينية والثقافة الإسلامية:

والثقافة الإسلامية التي نعنيها، ليست مجرد (الثقافة الدينية) كما يتوهم بعض الناس. فكل ما هو (إسلامي) أوسع مما هو (ديني) باعتبار أن الإسلام دين ودنيا.

وهذا يلتبس فهمه على كثير من المتعلمين، في قضايا كثيرة، فمنهم من يتحدث عن (التربية الدينية) ويحسب أنها هي (التربية الإسلامية).. هذا مع أن التربية الدينية واحدة من أنواع شتى من التربية كلها إسلامية، مثل (التربية العقلية) و (التربية الخلقية) و (التربية البدنية) و (التربية المهنية) و (التربية الاجتماعية) و(التربية العسكرية) و (التربية الجنسية)... إلى آخره، ومنها: (التربية الدينية) أو (الروحية).

وكذلك نقول هنا: إن (الثقافة الإسلامية) تشمل فيما تشمل: (الثقافة الأدبية واللغوية)، وتشمل (الثقافة التاريخية)، وتشمل (الثقافة الإنسانية) التي تتصل بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، وتشمل (الثقافة العلمية) المتصلة بالعلوم الطبيعية والرياضية، وتشمل (الثقافة الفنية) التي تتصل بالفنون المختلفة، وتشمل (ثقافة الواقع) سواء أكان واقع المسلمين أم واقع غيرهم. كما تشمل الثقافة الدينية أيضا.

وسنشير في حديثنا عن خصائص هذه الثقافة ما يبين تنوعها وشمولها لكل مسارات الحياة، مادية ومعنوية، دينية ودنيوية، فردية واجتماعية.

من خصائص ثقافتنا

ولثقافتنا العربية الإسلامية خصائص تميزها عن غيرها من الثقافات، يحسن بنا هنا أن نسلط عليها شعاعا يجلي لنا ملامحها الأساسية.

فمن خصائص هذه الثقافة:

الربانيـــة: فهـي ثقافة معجونـة بالجانب الإلهي، قد امتزجت فكرة الإيمان عامة، والتوحيد خاصة، بجوانبها كلها، جرت فيها، مجرى الدم في الشعيرات، في شعرها ونثرها، في أدبها، وعلمها، وفلسفتها، في كتب اللغة، وكتب الدين، وكتب العلم، على اختلافها، فيما تزين به المساجد، وفيما تجمل به المنازل.

قد يوجد فيها بعض الملاحدة أو الشكاك، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها. ومع هذا تجد نضح هذه الثقافة الربانية عليهم، أحبوا أو كرهوا.

الأخلاقية: وللعنصر الأخلاقي فيها مكان رحيب، وأثر عميق، برز ذلك العنصر حتى في الجاهلية ذاتها، كما نلمسه في شعر حاتم الطائي، وعروة ابن الورد، وعنترة العبسي[1]، وغيرهم.

ثم جاء الإسلام، فعمق هذا العنصر أيما تعميق، ووسعه أبلغ توسعة، وربط الأخلاق بأهداف أرحب وأرقى، وحوافز أنبل وأزكى، ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة، وحررها من غلو الجاهلية وغلوائها، ورفع

---

(١) انظر بعض أشعار هؤلاء في ديوان الحماسة لأبي تمام.

الأخــلاق مكانًا عليًــا حين جــعلهــا غــاية الرســالـة : «إنما بعــثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] ، ونندد بالعلم الذي لا يثمر خلقًا ولا سلوكًا حسنًا .

وفصل آدابًا للمعلم والمتعلم ، والقـارئ والسامع ، والبـاحـث والمناظر ، بل آدابًا لكل شيء في الحياة ، من أدب المائدة إلى بناء الدولة .

واعتبر الإسلام الأخـلاق ثمرة الإيمان الصـادق ، والتعبـد الخالص ، وإلاَّ كـان فساد الخلق دليل فساد الإيمـان ، أو فساد العبـادة ؛ ولهذا كـان من أخـلاق المنافـق : أنه إذا حدث كذب ، وإذا وعـد أخلـف ، وإذا ائتمـن خان ، وإذا عـاهد غـدر ، وإذا خاصم فجر .

ولا تعترف هذه الثقافة بتجزئة الأخلاق : أخلاق لمعاملة المسلمين ، وأخرى لغير المسلمين ، فالخير خير للجميع ، والشر شر على الجميع ، والحلال حلال للكل ، والحرام حرام على الكل ، لا كما جاء في توراة اليهود المحرفة ، من تحريم الربا إذا كان بين الإسرائيليين بعضهم وبعض ، أما مع غير الإسرائيليين ، فلا بأس به ولا حرج فيه .

كما لا تعترف هذه الثقافة بذلك المبدأ الخطر الشرير : أن الغاية تبرر الوسيلة ، بل هي لا تؤمن إلا بالوسيلة النظيفة للغاية الشريفة ، ولا تصل إلى الحق بالخوض في الباطل . فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا .

ومن ثم لا انفصـال في ثقافـة الإسلام بين الأخـلاق والعلم ، ولا بين الأخـلاق والعـمل ، ولا بين الأخـلاق والاقـتصـاد ، ولا بين الأخـلاق والسيـاسـة ، ولا بين الأخلاق والحرب .

الإنسانية: ومن خصائص هذه الثقافـة : الإنسانية . فلحمتها وسداها : احترام الإنسان ، ورعايـة فطـرة الإنسـان ، وكرامة الإنسـان ، وحقـوق الإنسـان ، فـهـي تقوم على اعتبـار أن الإنسـان «مخلوق مكـرم» من ربه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾

---

(١) رواه ابن سعد في طبقاته والبخاري في الأدب المفرد ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ورواه البيهقي في الشعب . كلهم عن أبي هريرة . وذكره في صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩).

(الإسراء ٧٠)، وأن الله جعله في الأرض خليفة، وأنه تعالى سخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

وهي تقوم على تكريم الإنسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن جنسه أو لونه، أو لغته أو موطنه، أو طبقته، بل عن دينه نفسه، فهو مكرم بإنسانيته قبل ديانته. ومن المواقف الرائعة ما رواه البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد مرت عليه جنازة ميت وهو جالس، فقام لها واقفًا، فقيل له: إنها جنازة يهودي؟ فقال: «أليست نفسًا؟». بلى، ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان[1].

العالمية: وما دامت ثقافة لكل إنسان، فلا غرو أن تكون ثقافة عالمية المنزع، والوجهة، وقد عملت على تقريب الفوارق بين بني الإنسان، تلك التي فرقت البشر قديمًا وحديثًا، ولهذا اشترك فيها عرب وعجم، بيض وسود، أغنياء وفقراء، ملوك وسوقة، مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، ولا تنافي بين انتماء هذه الثقافة إلى العروبة والإسلام من ناحية، ووصفها بالعالمية من ناحية أخرى. فهي ـ كما قلنا ـ عالمية النزعة والوجهة، مفتوحة لكل الجماعات البشرية، غير مغلقة على نفسها، ولا متعصبة ضد غيرها، مثل الثقافة اليهودية المنغلقة، التي تقوم على تمجيد جنس خاص، وشعب معين، حتى وصفت الله سبحانه بأنه «رب إسرائيل»، واعتبرت الشعب الإسرائيلي وحده ـ كجنس ـ شعب الله المختار.

أما ثقافتنا فهي وإن كتبت بالعربية، وانطلقت من الإسلام، فالإسلام نفسه عالمي الرسالة، من أول يوم، جاء يقول: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ (البقرة: ٢١) وغيرها لا «يا أيها العرب»، ويدعو إلى الله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢) وغيرها لا «رب المسلمين ولا رب العرب وحدهم». ويعلن أن دعوته عامة لا خاصة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)

التسامح: ومن دلائل هذه العالمية وجود خصيصة «التسامح» فيها، وبرغم ظهور العنصر الديني فيها وغلبته عليها. ولكن الدين الذي قامت عليه، يؤكد الإيمان

---

(١) انظر: خصيصة الإنسانية من كتابنا: «الخصائص العامة للإسلام» طبع مكتبة وهبة، القاهرة. والرسالة، بيروت.

بحقيقتين أساسيتين على غاية من الأهمية، لتأثيرهما في فكر الإنسان وسلوكه، وعلاقاته مع الآخرين، وهما:

الأولى: أن اختلاف البشر في الأديان وغيرهما واقع بمشيئة الله تعالى المرتبطة بحكمته، ولا يملك أحد أن يرد مشيئة الله ويغير سننه في الكون. يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩). قال المفسرون: أي وللاختلاف والتنوع خلقهم.

الثانية: أن حسابهم على ما ضلوا فيه أو انحرفوا، إنما هو إلى الله يوم القيامة، وليس إلى الناس اليوم، وفي هذا يقول الله لرسوله في شأن المخالفين: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١٥).

ولهذا وسعت الثقافة الإسلامية في رحابها الفسيحة: الأديان المختلفة، والأجناس المختلفة، والألوان المختلفة، واللغات المختلفة، ولم تضق بدين، ولا عرق ولا لون ولا لسان.

وكانت هذه الثقافة تجسد (التنوع) في إطار (الوحدة)، ولا غرو أن عاش في ظلها اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من أهل الملل والنحل، غير مضيق عليهم في عقائدهم أو عباداتهم وشعائرهم. لهم ذمة الله وذمة رسوله، وذمة جماعة المسلمين. وهذا أصل كلمة (أهل الذمة) التي ينفر بعض الناس منها، لأنهم لا يعرفون أصلها ولا مفهومها.

ولم تعش هذه الأديان والعروق المختلفة على هامش الحضارة الإسلامية، بل ساهمت في شتى مجالات هذه الحضارة.

ولم يفرض الإسلام على غير المسلمين الذين يعيشون في كنفه وفي ظلال حضارته: أن يلزمهم بأحكام شريعته فيما يتعلق بخصائصهم الدينية، مثل الزواج

والطلاق ونحوها من شئون الأسرة، أو ما يسمى (الأحوال الشخصية) وجاء عن الصحابة في ذلك: اتركوهم وما يدينون.

بل ذهب بعض فقهاء المسلمين إلى أننا لا نفرض عليهم قوانيننا الجنائية، إلا إذا رضوا بها، واستدلوا في ذلك بقول الله تعالى: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: ٤٢).

قارن هذا بما تفعله اليوم بعض دول الحضارة الغربية، التي تفرض على المسلمين أن يخالفوا دينهم جهرة، وأن يعرضوا عن أحكام شرعهم وأوامر ربهم، علانية، إذ لا تتسع الفلسفة القائمة، التي انبثقت عنها الأنظمة والقوانين، لفئات تخالف الأغلبية في عقائدها وقيمها وأحكامها.

ولهذا يجد المسلم الملتزم بدينه حرجا في أنظمة الزواج والطلاق والميراث التي لا تتفق مع أحكام شريعته، ويفرض عليه القانون أن يطيعها ويضرب بشريعته عرض الحائط.

ومثل ذلك بعض الأنظمة والتقاليد التي تتصل باللباس والزي والزينة وبعض الممارسات الرياضية، فبعض المدارس في فرنسا مثلا تفرض على الطالبة المسلمة أن تخلع حجابها، وهو فرض عليها من ربها.

وكثير من المدارس - إن لم يكن كلها - تفرض على الفتاة المسلمة السباحة في مسابح مشتركة بين الذكور والإناث، في حين يحرم دينها عليها ذلك.

وكذلك ضاقت فرنسا بإنشاء كلية أوروبية للدراسات الإسلامية لتخريج أئمة ووعاظ للجاليات الإسلامية الكبيرة من داخل أوروبا شرقها وغربها[1].

---

(١) امتنعت السفارات الفرنسية في البلاد العربية - بأمر من وزارة الخارجية - عن إعطاء أي تأشيرة للعلماء والدعاة الذين دعوا لحضور حفل افتتاح الكلية، كما رفضت وزارة الداخلية إعطاء تأشيرات دخول لأبناء أوروبا الشرقية، الذين رغبوا في الدراسة بالكلية، مع مسيس حاجة شعوبهم إليهم.

هذا مع أن الإسلام لا يضيق على غير المسلم فيما يعتقد أنه حلال، ولو لم يكن واجبا في دينه، مثل أكل الخنزير، وشرب الخمر، فالإسلام لا يمنع غير المسلم أكل الخنزير وهو من الأطعمة المحرمة في الإسلام بنص القرآن. كذلك شرب الخمر، وهي أم الخبائث في الإسلام، ومع هذا لا يضيق على النصراني الذي أحل له دينه أكل الخنزير وشرب الخمر، مع أنه لو ترك أكل ذلك الخنزير وشرب الخمر هذه، لم يكن عليه أي حرج في دينه.

ومع هذا بلغت سماحة الإسلام إلى هذه الدرجة، حتى إن بعض أئمة المسلمين ومذاهبهم ـ وهم الحنفية ـ يرون أن من أتلف خنزيرا أو خمرا لنصراني، وجب عليه أن يضمن له قيمته.

هذه هي سماحة الثقافة الإسلامية ومرونتها واتساعها للأنواع والألوان المختلفة، مع أن هذه الثقافة أو الحضارة أو الأمة كلها قائمة على أساس من العقيدة والدين.

التنوع: ومن خصائص هذه الثقافة «التنوع» فهي ليست مجرد ثقافة دينية لاهوتية، كما يتصور بعضهم.. إنها ثقافة واسعة متنوعة، فيها الدين بفروعه المتعددة، واللغة والأدب والفلسفة، والعلوم الطبيعية والرياضية، والعلوم الإنسانية، والفنون المختلفة.

فيها فقه أبي حنيفة ومدرسة الرأي، وفقه مالك ومدرسة الأثر، فيها أصول الشافعي، وكلام الأشعري، وتفسير الطبري، ورواية البخاري، وأدب الجاحظ، ومعجم الخليل، ونحو سيبويه، وبلاغة عبد القاهر، وطب ابن سينا، وشعر المتنبي، ومقامات الحريري، وبصريات ابن الهيثم، ورياضيات البيروني، وتصوف الغزالي، وفلسفة ابن رشد، وتحليل ابن خلدون، وخط ابن مقلة، وألحان الموصلي.

فيها ابن حنبل من العراق، وابن تيمية من الشام، وابن طفيل من الأندلس وابن أبي زيد من تونس، وابن العربي من المغرب، وابن حجر من مصر، وابن الوزير من اليمن، والشيرازي من إيران، والزمخشري من خوارزم، والدهلوي من الهند، وجلال الدين الرومي من تركيا.

فيها سلفية ابن تيمية، وصوفية ابن عربي.

فيها ظاهرية ابن حزم، ومقاصدية الشاطبي.

فيها عقلانية الفلاسفة، والتزام الفقهاء.

فيها اجتهاد المجددين، وتزمت المقلدين.

فيها الكتب المقروءة التي امتلأت بها المكتبات، والصور المشهودة التي ازدانت بها الجوامع والمدارس والقصور (الأموي في دمشق، والحمراء في الأندلس، والأزهر في مصر، والسلطان أحمد في إستانبول، وتاج محل في الهند).

إنه التنوع الشامل أو الشمول المتنوع.

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا: أن تراثنا الثقافي ـ لشموله وتنوعه وواقعيته ـ نراه يحوي من المفردات الثقافية ما لا يصح أن يكون مصدرا لتوجيه عموم الأمة، وتثقيف ناشئتها بنين وبنات.

فنحن نرى في هذا التراث:

صلاح أهل السلوك، وخلاعة أهل البطالة.

نرى فيه: زهديات أبي العتاهية وخمريات أبي نواس.

نرى فيه: مرثيات الخنساء ومجون ابن أبي ربيعة.

نرى فيه «نهج البلاغة»، و«ألف ليلة وليلة».

نرى فيه: صوفية الجنيد الملتزمة، وشطط الحلاج وابن سبعين!

نرى فيه: استقامة أهل الاتباع، وانحراف أهل الابتداع.

ونرى فيه: مقولات الفرق المختلفة من أهل الملة، والفرق المنشقة عن الملة.

هذه الجوانب من التراث لا نستطيع أن ننكرها، ولا أن نحذفها، وهي مجال لدراسة المتخصصين، وموازناتهم العلمية، كما أنها مجال لقراءات الخاصة، الذين لا يخشى عليهم من التأثر بشططها وتطرفاتها.

ولكن الذي يجب أن نعول عليه في التثقيف والتوعية، وفي التعليم والتربية: هو الثقافة المعتدلة، المعبرة عن رسالة الأمة، وعن هويتها ومقوماتها وخصائصها

الذاتية. والتي تقتضينا أن ننتقي أفضل ما في تراثنا، ونأخذ من كل شيء أحسنه، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ١٧، ١٨).

الوسطية: يكمل خصيصة «التنوع» خصيصة أخرى هي «الوسطية» أو «التوازن». فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط، للأمة الوسط، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها. ومع أن الطرفين قد يوجدان داخلها، إلا أن الصبغة العامة لها، والطابع الغالب عليها هو الوسطية، التوازنية، المستمدة من وسطية الإسلام، ووسطية أمته: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

تجد هذا واضحًا في الوسطية المتوازنة: بين العقل والوحي، بين المادة والروح، بين الحقوق والواجبات، بين الفردية والجماعية، بين الإلهام والالتزام، بين النص والاجتهاد، بين المثال والواقع، بين الثابت والمتحول، بين استلهام الماضي والتطلع إلى المستقبل.

التكامل: ومن خصائص هذه الثقافة أيضًا: التكامل، التكامل فيما بين بعضها وبعض، فالثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية، وهذه تغذي الثقافة الإنسانية، وكل هذه تستفيد من الثقافة العلمية.

ومثل ذلك تكاملها مع الثقافات الأخرى، فهي لا تدعي أنها تنشئ كل شيء من عدم، وتبدأ رحلة الثقافة من الصفر، بل أعلنت نصوصها المقدسة أنها جاءت متممة لما كان قبلها لا مبتكرة، مكملة للبناء الذي بدأه رسل الله من قبل، مصححة للمسيرة التي داخلها بعض التحريف أو الانحراف. ولهذا قال رسولها عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فهو متمم لا مبتدئ، ومكارم الأخلاق لم تقطع جذورها من الدنيا، بل هي موجودة، وإن كان فيها قصور أو نقص، ومهمته أن يتممها ويكملها.

وموقف الثقافة الإسلامية مع الثقافات الأخرى كموقف نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع النبوات الأخرى، والذي عبَّر عنه الحديث الصحيح: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من

زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة؟! فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[1].

ومقتضى هذا التكامل الذي اتصفت به الثقافة الإسلامية، أنها لا تجد مانعًا شرعيًا يمنعها من اقتباس الحكمة، والتماس العلم النافع، والعمل الصالح عند غيرها، ولو كانوا خصومها. وفي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»[2].

وقد طلب الرسول الكريم من أسرى المشركين الذين يحسنون الكتابة، ولم يتيسر لهم دفع الفدية في غزوة «بدر» أن يفدوا أنفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة حتى يحذقوا[3]، فتعلم منهم عدد كان منهم زيد بن ثابت كاتب الوحي، وأحد علماء الصحابة رضي الله عنهم[4].

الاعتزاز بالذات: ومن خصائص هذه الثقافة: أنها تعتز بذاتيتها وتميزها عن غيرها، بمصادرها الربانية، وغاياتها الإنسانية، ووجهتها العالمية، وصبغتها الأخلاقية، وأنها وقفت ضد العصبيات الجاهلية، من التمييز بين بني الإنسان بعروقهم أو بألوانهم، أو بأنسابهم، أو بألسنتهم، أو بطبقاتهم، وأنها ضمت في رحابها شعوبًا ذابوا في كيانها، وكونوا جميعًا نسيج أمتها.

واعتزاز هذه الثقافة بذاتيتها أو أصالتها، جعلها ترفض أن تذوب في غيرها، وتفقد خصائصها ومكوناتها، وتتنازل عن رسالتها العالمية الهادية، لتسير في ركب (التغريب) أو (العولمة) أو (التطبيع). فوضعها أبدا أن تكون رأسا لا ذيلا، وسيدا لا تابعا. وطريقها دائما هو ﴿الصراط المستقيم﴾ صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، كما في (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) حديث رقم (١٤٧٣).

(٢) رواه الترمذي في أبواب العلم عن أبي هريرة (٢٦٨٨) وقال: حديث غريب، وذكر أن فيه راويا يضعف في الحديث من قبل حفظه. ورواه ابن ماجه في الزهد (٤١٦٩).

(٣) رواه ابن سعد عن الشعبي مرسلاً، كما في الطبقات: ٢٢/١، طبع بيروت.

(٤) انظر: كتابنا (الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة) ص ٦٢ ـ ٦٣.

الانفتاح في ثقافتنا

- دلائل الانفتاح في الثقافة الإسلامية
- المسلم يلتمس الحكمة من أي وعاء
- ثقافة ترحب بالحوار
- ثقافة تؤمن بالتجديد

الانفتاح في ثقافتنا

ويتعين علينا هنا أن نجيب عن هذا السؤال الكبير حول طبيعة ثقافتنا: أهي ثقافة منغلقة متقوقعة على نفسها كما قد يفهم من اعتزازها بذاتها، أم هي ثقافة منفتحة، تأخذ كما تعطي؟

الاعتزاز بثقافتنا لا ينافي الانفتاح بضوابطه:

وأود أن أقرر هنا حقيقة مهمة، قد تخفى أو تلتبس على كثيرين، وهي: أن اعتزازنا بثقافتنا، المعبرة عن هويتنا، ورفضنا الذوبان في الآخرين، ومقاومة تيار (العولمة) أو (التطبيع) أو (التغريب) الغازي لعقل الأمة وضميرها، لا يعني (الانغلاق) عن ثقافات الآخرين، وإقفال الأبواب كلها دون أي استفادة مما لديهم مما قد ينفع من حق.

فقد جرت سنة الله أن يتخلل الباطل بعض الحق الذي لا ينتبه إليه إلا أولو البصائر، الذي يستلونه استلالا من بين ركام الباطل، ولا يمنعهم اتصاله أو امتزاجه بالباطل أن يقتبسوه وينتفعوا به.

دلائل الانفتاح في الثقافة الإسلامية:

وبهذا نقرر أن الثقافة الإسلامية ليست ثقافة منغلقة، بل هي لأصالتها وقوتها منفتحة على الثقافات بضوابطها، كما أن المسلم - مع اعتزازه بثقافته ورسالته - منفتح على الثقافات الأخرى، يأخذ منها ويدع، وفق معايير راسخة عنده.

ولهذا الانفتاح في ثقافتنا مظاهر تنبئ عنه، ودلائل تدل عليه، من أصول ديننا، ومصادر شريعتنا، وليس مجرد دعوى تدعى، ليتباهى بها. وسنذكر هنا من هذه الأدلة ما يكفي لتأصيل هذه المقولة من الناحية الشرعية.

القرآن مصدق مهيمن:

ونحن إذا نظرنا إلى القرآن وجدناه جاء ـ كما قرر هو ـ مصدقا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنا عليه. ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾ (المائدة: ٤٨).

على معنى أن القرآن جاء مؤكدا لما جاءت به الكتب السابقة من الحقائق والعقائد والأصول التي لا تختلف فيها الأديان، وهي التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ (الشورى: ١٣).

كما جاء القرآن مهيمنا على تلك الكتب، أي مصححا لما وقع فيها من تحريفات وأخطاء، ونافيا ما اعتراها من أباطيل، ومن سوء التأويل.

ومن هيمنته عليها أنه جاء متمما لها، مرتقيا بالبشرية إلى أبلغ مدى تستطيع الوصول إليه، في زمن الرسالة الخاتمة، التي ليس بعد نبيها نبي، ولا بعد كتابها كتاب.

ومن هنا جاء الإسلام في أصل رسالته ليتمم ويبني، لا ليلغي ويهدم، إلا ما كان من باطل.

وفي الحديث الشريف: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» أو «مكارم الأخلاق»[١].

---

(١) رواه ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم والبيهقي في الشعب، وذكره في صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩).

ولا غـرو أن فـرض الإسـلام على المسلـم أن يؤمن بكل كـتـاب أنزل، وبكـل نبي أرسل، ولا يقبل إيمانه، ولا يصح إسلامه إلا بهذا: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

الرسول أبقى الصالح من أحوال الجاهلية:

ولقد علمنا من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن سنته: أنه لم يلغ كل ما كان عليه العرب قبل الإسلام، بل ألغى الفاسد، وأبقى على الصالح من أعرافهم وعقودهم ومعاملاتهم.

حتى إننا نجد عبادة مثل الحج أبقى الإسلام على الكثير من مناسكها التي توارثها العـرب من ملة إبراهيم، مـثل الطواف والسـعي بين الصـفـا والمروة وغـيـرهــا، وحـذف منها ما يخالف عقائد الإسلام وقيم الإسلام، مثل قولهم في التلبية: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. يعنون الأصنام.

كـمـا أبطل الطواف بالبيت في حـالة العري، كـمـا كـان بعض العرب يفـعلون، يقولون: لا نطوف ببيت الله بثياب عصينا الله فيها!

وفي الزواج كـان عـنـد العـرب أربعـة أنـواع مـن الأنكحـة، ذكرها البخاري عن عـائشـة، فـأبطل الإسـلام ثلاثة منهـا، وأبقى واحـدا، هو الذي عليه عـمـل المسلمين إلى اليوم.

وفي البيع كانت لهم أنواع من البيوع فيها كثير من الغرر والجهالة، وتفضي إلى النزاع، فنهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم، وأقر ما عداها من البيوع.

ونجد النبي صلى الله عليه وسلم يكرم ابنة حاتم الطائي، لأجل ما عرف عن أبيها من جود وقري للضيف، ومكارم الأخلاق.

مشروعية اقتباس ما لدى الأمم:

ومما له دلالة هنا: مـا ذكره العلمـاء من جواز اقتباس مـا عند الآخرين من أعراف

وأعمال وأنظمة ومشروعات يمكن أن تنفع المسلمين، ما دامت لا تتعارض مع عقيدتهم أو شريعتهم أو قيمهم الأخلاقية.

فقد اقترح بعض الصحابة على الرسول أن يتخذ خاتما. كما يفعل الملوك وغيرهم، يختمون به كتبهم ورسائلهم، وذلك حين أراد أن يكتب إلى أناس من الأعاجم، فقيل له: إنهم لا يقبلون كتابا إلا عليه خاتم! فاتخذ خاتما من فضة نقشه (محمد رسول الله)[1].

وقالوا: إن سلمان اقترح عليه حفر الخندق في غزوة الأحزاب، فعمل بمشورته، وحين رأته قريش وغطفان قالوا: ما كانت هذه مكيدة لتكيدها العرب.

واقتُرِح على عمر تدوين الدواوين، تأسيا بأم الحضارة، فاستجاب لما اقترح عليه.

ومثل ذلك استجابته رضي الله عنه لعمل تاريخ للمسلمين، فاختار أن تكون بدايته الهجرة النبوية، بدء إقامة المجتمع المسلم وتكوين الدولة الإسلامية.

شرع من قبلنا:

ومما يذكر هنا: ما قرره الأصوليون حول (شرع من قبلنا) حين يذكر في القرآن أو السنة: هل يعتبر دليلا يستنبط منه الحكم الشرعي أوْ لا؟ والقول الراجح: إنه دليل معتبر ما لم يأت في شرعنا ما ينسخه. وإلا فلماذا ذكره القرآن؟

ومن هنا استدلوا على ضرورة اتصاف المرشحين للأعمال و الوظائف بالقوة والأمانة معًا، أخذا بما ذكره القرآن من قول ابنة الشيخ الكبير: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَٰأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

وكذلك استدلوا بخرق الخضر للسفينة التي كان يملكها مساكين يعملون في البحر، أراد أن يعيبها بذلك، فتنجو من غصب الملك لها[2]، و هذا ما استنبطوا منه قاعدة شرعية مهمة جدا، وهي قاعدة ارتكاب أخف الضررين.

---

(١) رواه البخاري في كتاب اللباس (٥٨٧٢) عن أنس، و مسلم في اللباس، وأصحاب السنن.

(٢) يشير إلى قوله تعالى على لسان العبد الصالح: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٧٩).

وفي سورة يوسف مثلا: أحكام كثيرة، استنبطها منها العلماء، كما في قوله تعالى على لسان يوسف: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (يوسف: ٤٧).

قال الإمام القرطبي: هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية، التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئا منها، فهو مفسدة، ودفعه مصلحة. ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته، الموصلتين إلى السعادة الأخروية[١].

كما استنبط العلماء من قول يوسف للملك: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥٥) مشروعية طلب الإنسان للولاية إذا علم أنه لها أهل، وأن لا أحد يقوم مقامه في العدل و الإصلاح، و توصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى ذلك فرضا متعينا عليه[٢].

كما أخذ ابن تيمية وغيره من الآية الكريمة جواز تولي المسلم بعض المناصب والأعمال لسلطان كافر أو ظالم، إذا كان يرى في نفسه أنه قادر على إقامة العدل، وإزالة الظلم، ومقاومة الفساد، أو على الأقل تقليل شرهما، بقدر المستطاع[٣].

المسلم يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت:

إن المسلم ليس ـ كما يتصوره أو يصوره بعض الناس ـ إنسانا متقوقعا منغلقا على نفسه، قد وضع على عينه غشاوة فلا يرى شيئا خارج محيطه، وسد أذنيه فلا يسمع

---

(١) تفسير القرطبي ج١٣/٩، طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) انظر: القرطبي: ١٣/٩ انظر: القرطبي: ٩/٢١٥ ـ ٢١٧.

(٣) انظر فتوى ابن تيمية في كتابنا (أولويات الحركة الإسلامية) ملحق رقم (٢) ص ٢٠٢ ـ ٢٠٦ نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، وكذلك في كتابنا (من فقه الدولة في الإسلام) طبعة (دار الشروق) بالقاهرة.

إلا لشيوخه، وأغلق على عقله بقفل محكم، فلا يفتحه لشيء، غير ما لقنه، وإن قام عليه برهان العقل، أو دليل الحس، أو سلطان الواقع.

إن المسلم الحق قد تعلم من كتاب الله ومن سنة رسول الله أن الحق يلتمس في آفاق الكون وفي أغوار النفس، أو في عبر التاريخ كما قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٠ ـ ٢١) ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣) ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

كما تعلم أن الحق قد ينطق به غير المؤمنين، ويؤخذ عنهم، بغض النظر عمن قاله، فالعبرة بما قيل، لا بمن قال.

وقد نقل القرآن بعض كلمات تعبر عن الحقيقة من أناس لم يكونوا مؤمنين، كما رأينا في قول ملكة سبأ في وصف المستعمرين إذا دخلوا بلدا ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (النمل: ٣٤) فهي تريد: إذا دخلوها فاتحين مستعمرين، فهم يفسدون البلاد ويذلون العباد.

ونقل القرآن عن امرأة العزيز قولها حين حقق معها الملك في قضية يوسف ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥٣) حتى إن بعض المفسرين استكثروا ذلك عليها وقالوا: إنه من كلام يوسف، والسياق قاطع بأنه من كلام المرأة.

وقد علمنا القرآن الكريم من خلال قصصه التي يسوقها عبرة لأولي الألباب: أن الإنسان من قديم الزمان تعلم من غراب، وأن نبي الله سليمان استفاد من هدهد، بعض ما لم يكن يعلم.

ففي قصة ابني آدم، التي رأينا فيها الأخ الشرير، يقتل أخاه الخيِّر ظلما وعدوانا، ثم يحار في دفن جثته، ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ

أخيه قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ (المائدة: ٣١). وبهذا تعلم الإنسان كيفية دفن الموتى من الغراب.

وفي قصة سليمان مع ملكة سبأ: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل: ٢٠ ـ ٢٢).

وهكذا تلقى سليمان عليه السلام هذه المعلومة من هذا الطائر (الهدهد) وأصبحت مثلا لكل كبير يتعلم من صغير، حيث يقول التلميذ لشيخه: لست أعظم من سليمان، ولا أنا أقل من الهدهد!

والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد بن ربيعة: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1] وهذا مطلع قصيدة للبيد قالها في الجاهلية.

بل صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعض الصحابة حين أوصاه الشيطان بقراءة آية الكرسي: «صدقك وهو كذوب»[2].

حتى الشيطان يمكن أن يقول الصدق و يتعلم منه المسلم الملتزم إذا عرف صدقه. والمؤمن البصير هو الذي يميز الصدق من الكذب، والحق من الباطل، والطيب من الخبيث.

وقد روى الترمذي وابن ماجة من حديث ضعيف: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أحق الناس بها».

والحديث ضعيف الإسناد من غير شك، ولكن معناه صحيح، ومقبول عند المسلمين، ومعمول به.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة. اللؤلؤ و المرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١٤٥٤).

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق عن أبي هريرة ٣٢٧٥.

وقال علي رضى الله عنه : العلم ضالة المؤمن ، فخذوه ولو من أيدي المشركين[1]. وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على نتائج العلوم الطبيعية والرياضية ، التي لا تصطبغ عادة بعقائد أصحابها ولا قيمهم ومفاهيمهم عن الإنسان و الحياة والكون ، لأنها قوانين كونية عامة ينتفع بها المؤمن والكافر ، و يخضع لسننها البر والفاجر .

ومن هنا لم يجد المسلمون حرجًا في عصورهم الذهبية أن يقتبسوا العلوم الكونية ، من الطب و التشريح والفلك والفيزياء والكيمياء و الرياضيات وغيرها ، من أمم الحضارات القديمة ، كاليونان و الفرس والروم ولاسيما اليونان[2] .

ولا غرو أن استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم من أسرى المشركين في غزوة بدر ، ممن كان يحسن الكتابة منهم في محو أمية عدد من المسلمين في المدينة ، وتعليمهم القراءة و الكتابة ، و جعل ذلك فداءهم من الأسر ، و كان من الذين تعلموا على أيدي هؤلاء : زيد بن ثابت كاتب الوحي ، وأعلم الصحابة بالفرائض (المواريث) .

كما انتشرت بين المسلمين هذه الحكمة : «اطلبوا العلم ولو بالصين» حتى شاع بين بعض الناس أنها حديث ، وما هي بحديث ، ولكن معناها صحيح ومقبول لدى الكافة ، فالعلم يطلب حيث يوجد ، ويطلب من أهله ، ولو بأقصى الأرض .

ولهذا رأينا علماء الصحابة مثل علي وابن مسعود وعائشة وابن عباس وغيرهم يستشهدون بشعر أهل الجاهلية ، حتى إنهم يستشهدون به في تفسير القرآن الكريم .

المنافق قد يقول كلمة الحق:

لقد علم الإسلام المسلم أن ينظر أبدا إلى مضمون القول لا إلى قائله ، فالمبطل قد يقول الحق ، والمحق قد ينطق بالباطل ، والكذوب قد يصدق يوما .

وقد روى أبو داود في سننه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه كلمات مضيئة اقتبسها من مشكاة النبوة . قال فيها : إن المنافق قد يقول كلمة الحق . كما يحذر من

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ١٢١) .

(٢) انظر كتابنا : (الرسول و العلم) ص ٥٢ .

زيغات الحكيم، ويحسن بي أن أسوقها لما فيها من الفائدة والعبرة من صحابي وصفه الرسول الكريم بأنه أعلم أصحابه بالحلال والحرام[1] قال رضي الله عنه:

«إياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق!».

قال يزيد بن عميرة راوي هذا الأثر، وكان من أصحاب معاذ: قلت لمعاذ: وما يدريني - رحمك الله - أن الحكيم يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟

قال: «بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات (وفي رواية المشتبهات) التي يقال لها: ما هذه؟ ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع. وتلق الحق إذا سمعته فإن على الحق نورا»[2].

فقوله: وتلق الحق، فإن على الحق نورا. يعني: وإن صدر من المنافق، فإن النور الذي يكسو الحق، يشير إليه، ويدل عليه، ولا يخفى على أولي الألباب، الذين يردون كل شيء إلى ما أنزل الله من الكتاب والميزان.

المسلم كالنحلة:

إن المسلم الحق ليس ذنبا أو إمعة، يسير وراء الناس حيث ساروا، ويأخذ منهم ما خبث وما طاب، ولكنه يتطلع ويتوق ويرنو دائما إلى الأحسن من كل شيء، وقد أثنى الله تعالى على المهديين العقلاء المبشرين من عباده، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ١٧ - ١٨).

وهذا شأن المسلم مع الثقافات والحضارات، إنه يأخذ أحسن ما فيها، ويضمه

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم والبيهقي عن أنس ضمن حديث، وذكره في صحيح الجامع الصغير (٨٩٥).
(٢) رواه أبو داود في كتاب السنة باب لزوم السنة برقم (٤٦١١).

إلى ما عنده، ويضفي عليه من روحه، ما يفقده جنسيته الأولى، ويغدو جزءا من منظومة المسلم الثقافية.

إنه أشبه في صلته بالثقافات المتنوعة، بالنحلة، التي تعمل بهُدى وحي ربها إليها، وإلهامه إياها، تتنقَّل بين الأشجار والأزهار، تأكل من كل الثمرات الطيبة، سالكة سبل ربها ذللا، ثم تمتص ما تأكله وتهضمه وتتمثله، ثم تحوله إلى شراب يخرج من بطونها مختلفا ألوانه، فيه شفاء للناس.

وفي الحديث النبوي: «مثل المؤمن مثل النحلة، لا تأكل إلا طيِّبا، ولا تضع إلا طيبا»[1].

وهكذا يستطيع المسلم الناضج الراسخ في إيمانه وعلمه: أن يقرأ ما شاء من الفلسفات، ويطلع على ما شاء من الثقافات، ومنها الثقافة الغربية الحديثة، ثم يقتبس منها ما يلائم عقيدته ومفاهيمه عن الوجود وعن المعرفة وعن القيم، وما يتفق مع نظرته إلى الألوهية وإلى الكون والإنسان والحياة والتاريخ.

فهو يأخذ ما يأخذ عن بينة.. ويدع ما يدع على بصيرة.

يستطيع المسلم الحق أن يقتبس ما يراه حقا من المنهج الشكي لديكارت، ومن مثالية هيجل، ومن مادية ماركس، ومن وضعية كونت، ومن نشوئية دارون، ومن تحليل فرويد، ومن مجتمعية دوركايم، ومن واجبية كانت، ومن تطورية سبنسر، ومن حدسية برغسون، ومن براغماتية جيمس، ومن عقلانية راسل، ومن تشاؤمية شبنجلر، ومن تفاؤلية توينبي، ومن وجودية سارتر.

يأخذ من هؤلاء ومن غيرهم ما يلائمه، ويدع ما لا يلائمه، يُدخل هذا كله في مصفاة عنده للتنقية والتمييز، فيأخذ ما صفا من كل شوب، ويَدع الشوائب والرواسب والكدورات، فموقفه موقف المتخير المميز بين ما يقبله ويعرفه منطق

---

(١) رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه عن أبي رزين. ذكره في صحيح الجامع الصغير (٥٨٤٧) وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو، رواه أحمد والحاكم (١/ ٧٥، ٧٦) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر: (الإحسان) الحديث (٢٤٧) وتعليق المحقق عليه.

العـقـل، ومنطق الدين، ومنطق العلم، ومـا لا يقـبله ولا يعـرفـه، فـهـو يرحب بالمعروف، ويعرض عن المنكر.

إن رفضنا للنظرية الكلية لبعض هؤلاء، مثل داروين أو كونت أو ماركس أو فرويد أو دوركايم، لا يعني أن يكون كل ما قالوه باطلا، فليس هذا من طبيعة الأشياء، ولا من سنن الله في البشر، ولهذا لا مانع أن يجد المسلم في هذه النظريات بعض ما يفيده في تفسير بعض القضايا أو حل بعض المشكلات النظرية أو العملية.

إن المسلم إذا بلغ درجة من النضج والرسوخ لا يخشى عليه من أية مذاهب أو فلسفات يطلع عليها، كما لا يخشى على السباح الماهر، والغواص المتمرس، من نزول البحر أو السباحة فيه. إنما يخشى فقط على من لا يحسن السباحة، أو قليل الخبرة إذا خاض اللجج وهو غير متهيئ لملاقاتها.

كما أن السباح البصير ينأى بنفسه عن مواقع الخطر، والدوامات البحرية التي تبتلع من يقترب منها، مهما تكن مهارته، فهي كالوحش الفاغر فاه، أشبه بالحيتان الكبيرة وأسماك القرش ونحوها مما لا طاقة للإنسان به.

ومن هنا يستطيع المسلم المتمكن والمؤمن القوي أن يقرأ فلسفات الغرب، ويطلع على آراء فلاسفته، رغم اختلاف مدارسهم، وتباين توجهاتهم، ويأخذ منها ويدع، وفقا لمسلماته الدينية والعقلية، دون أن يحكم في ذلك هوى متبعا، أو تقليدا سائدا، أو ظنا لا يقوم على يقين، ولا يغني من الحق شيئا.

ليس من الحكمة ولا من الصواب إذن أن نرفض ـ باسم الإسلام و بمنطق شريعته ـ الحقيقة، لأنها وجدت بين ثنايا الأباطيل، كالذي يرفض كل حكمة أو موعظة وجدت في كتب اليهود أو النصارى، أو وجدت في كتب الفلاسفة الماديين المنكرين للألوهية أو للنبوة أو للبعث، أو غيرهم من الفلاسفة و العلماء أصحاب النظريات المختلفة في تفسير نشأة الكون أوفي تفسير السلوك أو في تفسير التاريخ، أو غير ذلك مما يتنافى مع وجهة الدين و فلسفته، أو مع شريعته وأحكامه.

وقد شكا الإمام الغزالي قديما من هذه الآفة: آفة رد الحق إذا وجد في كتب أهل الباطل. واعتبرها آفة عظيمة (إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان

مدونًا في كتبهم، و ممزوجًا بباطلهم، ينبغي أن يهجر ولا يذكر، إذ لم يسمعوه أوّلا إلا منهم، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل، لأن قائله مبطل، كالذي يسمع من النصراني قول : «لا إله إلا الله، عيسى رسول الله» فينكره ويقول: «هذا كلام نصراني» ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني: كافر، باعتبار هذا القول، أو اعتبار إنكاره نبوة محمد ـ عليه السلام ـ فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره، فلا ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر، مما هو حق في نفسه، وإن كان أيضًا حقًا عنده.

والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه، حيث قال: «لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق، تعرف أهله».

والعاقل يعرف الحق، ثم ينظر في نفس القول، فإن كان حقًا قبله سواء كان قائله مبطلاً، أو محقًا، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال، عالمًا بأن معدن الذهب: الرغام[1]. ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب، وانتزع الإبريز الخالص، من الزيف والبهرج، مهما كان واثقًا ببصيرته، وإنما يزجر عن معاملة القلاّب القروي، دون الصيرفي البصير، و يمنع من ساحل البحر الأخرق دون السباح الحاذق، ويصد عن مس الحية الصبي، دون المعزّم البارع.

ولعمري، لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة، وكمال العقل، في تمييز الحق عن الباطل، والهدى عن الضلالة، وجب حسم الباب في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن؛ إذ لا يسلمون من الآفة الثانية التي سنذكرها، وإن سلموا عن الآفة التي ذكرناها.

ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا، في أسرار علوم الدين، طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، ولم تتفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم.

وزعمت: أن تلك الكلمات من كلام (الأوائل)[2]، مع أن بعضها من مُولّدات الخواطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر.

---

(١) الرغام: التراب.

(٢) يقصد بـ(الأوائل). الفلاسفة القدماء.

وبعضها يوجد في الكتب الشرعية .

وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية .

وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه مؤيداً بالبرهان ؛ ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلِمَ ينبغي أن يهجر ، أو ينكر ؟

فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء ، والصوفية : لأن صاحب كتاب (إخوان الصفا) أوردها في كتابه ، مستشهدا بها ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا ، بإيداعهم إياه في كتبهم .

وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامي الغمر[1] ، فلا يعاف العسل وإن وجده في محجمة الحجام ، ويتحقق بأن المحجمة لا تغير ذات العسل ، فإن نفرة الطبع منه ، مبنية على جهل عامي ، منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر ، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة ، و لا يدري أنه مستقذر لصفة في ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفة في العسل فكونه في ظرفه ، لا يكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار .

وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، فمهما نسبت الكلام ، وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه ، وإن كان باطلا . وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ؛ ردّوه ، وإن كان حقا .

فأبدا يعرفون الحق بالرجال ، ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ! !) انتهى من «المنقذ من الضلال» .

---

(١) رجل غمر : لم يجرب الأمور .

ثقافة ترحب بالحوار

ولا عجب أن وجدنا ثقافتنا الأصيلة ترحب بالحوار مع الآخر، بل تدعو إليه ولا تخاف منه.

ومن قرأ القرآن ألفاه كتابا حافلا بالحوار على مستويات شتى.

حوار بين رسل الله ـ عليهم السلام ـ وأقوامهم، كما نجد ذلك جليا في حوار إبراهيم مع قومه في سورة الأنعام، وفي سورة الأنبياء، وفي سورة الشعراء، وفي حواره لأبيه في سورة مريم.

وكما نجد ذلك في حوار شعيب لقومه في سورة هود، وكذلك في سورة الأعراف والشعراء، وغيرها.

ومثل ذلك في حوار كليم الله موسى مع فرعون في سورة الشعراء على وجه الخصوص، وفي سور أخرى.

وأجلُّ وأكبر من ذلك كله: حوار الله تعالى مع خلقه، كما يتجلى ذلك في رد القرآن على أباطيل المشركين، وعلى شبهاتهم، وإقامة البراهين العقلية على ما ينكرونه من الوحدانية والبعث، وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين.

وأكثر من ذلك: الحوار المباشر بين الله تعالى وبين ملائكته عندما أراد سبحانه خلق آدم واستخلافه في الأرض. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا

إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠ ـ ٣٣).

بل أخطر من ذلك: حوار الله جل شأنه، مع شر خلقه إبليس، كما تجلى ذلك في سورة الأعراف، وسورة الحجر، وسورة (ص)، على ما في هذا الحوار من جرأة وتطاول من اللعين إبليس، حتى سأل الله تعالى أن ينظره إلى يوم يبعثون، فأنظره إلى يوم الوقت المعلوم. ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ اقرأ القصة في سورة (ص) من الآية ٨٢ إلى الآية٨٣.

وقد اعتبر القرآن الحوار وسيلة من وسائل الدعوة مع المخالفين، وقد أمرنا به في الآية الكريمة التي رسمت منهج الدعوة مع الموافقين، ومع الآخرين، وهي قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة مع الموافقين من أهل الملة، وأما الجدل بالتي هي أحسن، فيكون مع المخالفين. ومن روائع التعبير في الآية أنه اكتفى في الموعظة بأن تكون حسنة، لأنها مع الموافق، وأما الجدال، فلم يكتف إلا بأن يكون بالتي هي أحسن، لأنه مع المخالف. ومعنى هذا: أنه إذا كانت هناك طريقتان للجدال، وللحوار، إحداهما حسنة جيدة، والأخرى أحسن منها وأجود، فالمسلم مطالب أن يحاور غيره بالتي هي أحسن وأجود، على معنى أن يتخير أرق الأساليب، وألطف العبارات، وأقربها إلى إقناع العقول، واستمالة القلوب، وعدم إيغار الصدور.

وقد وجدنا كثيرا من ثقات علماء المسلمين ودعاتهم يرحبون بالحوار الإسلامي المسيحي في العصر الحاضر، إذا عينت أهدافه، وبينت موضوعاته، وحددت ضوابطه.

وقد حضر العلامة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ في الخمسينيات مؤتمرا للحوار في لبنان.

كما شارك وفد من رابطة العالم الإسلامي برئاسة رئيسها الشيخ محمد علي الحركان ـ رحمه الله ـ في السبعينيات من القرن العشرين في حوار مع الفاتيكان وكرادلته، وكان في الوفد عدد من العلماء والمفكرين، أذكر منهم الدكتور محمد معروف الدواليبي، والأستاذ محمد المبارك، وكان الحوار عن (حقوق الإنسان بين الإسلام والمسيحية) وصدر كتاب عن الرابطة في ذلك، وقد سمعت من الأستاذ المبارك ـ رحمه الله ـ أن نتائج هذه اللقاءات والحوارات كانت إيجابية لصالح الإسلام والمسلمين.

كما نظمت الجماهيرية الليبية عن طريق جمعية الدعوة الإسلامية بها حوارا آخر مع الكنيسة حول أربعة موضوعات بين الإسلام والمسيحية، اختير للحديث في كل منها أربعة أشخاص مشهود لهم، من الجانبين.

وقد صدر عن هذا اللقاء توصيات جيدة.

وقد شاركت شخصيا في بعض الحوارات مع المستشرقين في مؤتمر عقد في باريس في أكتوبر سنة ١٩٩٤م.

وفي لقاء آخر في مدينة (كولن) بألمانيا، نظمه الدكتور عبد الجواد فلاتوري ـ رحمه الله ـ وكنا وفدا من مصر فيه شيخنا محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ والدكتور محمود حمدي زقزوق، وعدد من علماء الأزهر، وكان لقاء مهم ومطول، أجبنا فيه عن تساؤلات القوم عن الإسلام، وحدث تفاهم وتعارف وتقارب، أحسب أنه مفيد للطرفين.

ومن إخواننا من علماء الشريعة من يتوجس خيفة أو يتوقع شرا، من وراء هذه اللقاءات، ويرى أنها نوع من الغزو لنا، ومحاولة التأثير فينا، وكأننا نحن الطرف الضعيف الذي يخاف على نفسه، ولِمَ لا يكون العكس؟ لِمَ لا نكون نحن المؤثرين لا المتأثرين، والغزاة لا المغزوين، ونَحن أصحاب الدين الخاتم، والكتاب المعجز، والعقيدة الموافقة للعقل، والأخلاق الملائمة للفطرة، والشريعة المحققة للعدل؟

ثم إننا مأمورون بالجدال بالتي هي أحسن كما أمرنا بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، في آية واحدة، فلماذا نعمل بجزء من الآية، ونعطل الجزء الآخر؟

وقد قال عز وجل: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦) فالذين ظلموا وتجاوزوا من أهل الكتاب ـ مثل اليهود الآن والنصارى في عهد الحروب الصليبية مثلاً ـ لا جدال بيننا وبينهم. إنما نجادل أهل الكتاب الذين لم يظلمونا ولم يعتدوا علينا، ولم يتجاوزوا الحدود معنا.

وجدالنا معهم دائما بالتي هي أحسن، كما هو شأن المسلم مع غيره.

ومن أصول هذا الجدال: أن نذكر الجوامع المشتركة بيننا وبينهم، لنقربهم إلينا، ونزيل الحواجز بين الطرفين، وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

الحوار لا يسقط حقنا في الدعوة:

على أن ترحيبنا بالحوار لا يسقط حقنا في الدعوة إلى رسالتنا العالمية، التي كلفنا الله تعالى حملها وتبليغها إلى البشرية، بلسان عصرها، حتى نبين لها، وتعقلها عنا، هذه الرسالة التي نؤمن ـ نحن المسلمين ـ أنها طوق النجاة للإنسانية مما تعانيه اليوم من قلق نفسي، وتحلل أخلاقي، وتفكك أسري، وتخبط اجتماعي، كما أنها سبيل الفلاح والسعادة في الآخرة، فنحن ندعو الناس كافة في مغرب ومشرق، وندعو أهل الكتاب خاصة إلى ما دعا إليه محمد خاتم الرسل القياصرة والملوك وأهل الكتاب في عصره.. إلى دعوة التوحيد الخالص، الذي يحرر الإنسان من عبادة الطبيعة في الأرض أو في الأفلاك، ومن عبادة المخلوقات غير المنظورة من الملائكة أو الجن، ومن عبادة الأوثان والأصنام، ومن عبادة الإنسان للإنسان، ومن عبادة الذات أو عبادة الهوى، ومن عبادة كل ما سوى الله جل شأنه، وهذا هو التحرر الحقيقي، ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

ثقافة تؤمن بالتجديد

ومن فضائل ثقافتنا: أنها لا تضيق بالتجديد، بل تؤمن به، وتفتح ذراعها له، سواء تجديدا في الدين أو تجديدا في الحياة.

تجديد الدين:

وكيف لا تؤمن بالتجديد، وهذا رسولها يقول بصريح العبارة مبشرا لأمته: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[١].

فليس لقائل أن يقول: كيف يجدد الدين، وهو نصوص محكمات، وآيات كريمات، وأحاديث شريفات؟

فنحن نقول: إن تجديد الدين بمعنى: تجديد الإيمان به، وتجديد الفهم له، والفقه فيه، وتجديد الالتزام والعمل بأحكامه، وتجديد الدعوة إليه.

ولهذا عرف تاريخ أمتنا مجددين من أمثال عمر بن عبد العزيز، الذي جدد سنن الخلفاء الراشدين بعد اندراسها، والشافعي الذي وضع علم أصول الفقه، والغزالي الذي أحيا الله به علوم الدين، وابن تيمية وابن القيم وابن الوزير وولي الله الدهلوي، وغيرهم.

وتجديد الشيء ليس معناه: أن تزيله، وتنشئ شيئا جديدا مكانه. فهذا ليس من التجديد في شيء. تجديد شيء ما أن تبقي على جوهره ومعالمه وخصائصه ولكن

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الملاحم والحاكم في المستدرك والبيهقي في المعرفة وغيرهم، وذكره في صحيح الجامع الصغير (١٨٧٤).

ترمم منه ما بلي، وتقوي من جوانبه ما ضعف، كما لو أردت تجديد جامع أثري، أو قصر أثري، فلابد أن تحافظ عليه وعلى خصائصه وروحه ومادته ما استطعت. ولكن تجدد من ألوانه ما ذهب، ومن بنائه ما وَهَى، وتحسن من مداخله، وتجمل الطريق إليه.. إلخ.

تجديد الدين لابد أن يكون من داخله، وبأدواته الشرعية، وعن طريق أهله وعلمائه، لا بالإغارة عليه، ولا بالافتيات على أهله، ولا بإدخال عناصر غريبة عنه، وفرضها عليه عنوة.

إنما يتجدد الدين بالاجتهاد الحق، الصادر من أهله في محله، وأهل الاجتهاد في الدين معروفون، لا بألقابهم، ولا بأزيائهم، ولا بشهاداتهم، لكنهم من استجمعوا شروطا علمية وأخلاقية معروفة في علم أصول الفقه. وقد اعتبر العلماء (الاجتهاد) من (فروض الكفاية) التي يجب أن تتحقق على مستوى الأمة. فإذا لم يكن فيها عدد كاف من المجتهدين يلبي الحاجة أثمت الأمة جمعاء.

المجددون المزيفون:

وإن كنا نرى الكثيرين في العصر الحاضر، قد أقحموا أنفسهم على الدين، وزعم كل منهم أنه مجدد الملة، وشيخ الإسلام، وإمام الزمان.

فمنهم من يقرأ القرآن قراءة جديدة معاصرة، تلغي قراءة الأمة طوال أربعة عشر قرنا، فهو يلغي تراثها كله، ويلقيه في سلة المهملات، ويبدأ من الصفر، لا يعتمد على حديث مرفوع، ولا على أثر موقوف على صحابي، ولا على قول صحيح عن تابعي، ولا على رأي مأثور عن إمام في اللغة أو إمام في الفقه أو إمام في التفسير. هو وحده حجة الزمان، وما عداه جهل وبهتان، ثم يأتي من عنده بتفسيرات وآراء ما أنزل الله بها من سلطان، ولا يقوم عليها برهان. والعجب أن هذا المدعي لا يحسن أن يقرأ آية قراءة صحيحة، ليس فقط لأنه لا يحفظ القرآن، بل لأنه لا يعرف مرفوعا من منصوب، ولا فاعلا من مفعول!

ومنهم من يريد أن يلغي الفقه كله، فقه الصحابة، وفقه التابعين، وفقه الأئمة المتبوعين، وغير المتبوعين، وأن نضرب عرض الحائط بهذه الثروة التشريعية

والحقوقية الهائلة، التي لا توجد لدى أمة من الأمم، والتي اعترف بفضلها وقيمتها وسعتها العرب والعجم، والشرق والغرب، ونوهت بها المؤتمرات الدولية للقانون في لاهاي وفي باريس وفي غيرهما.

فيأتي شخص لا يحسن أن يقرأ صفحة من كتاب في أصول الفقه، مثل الرسالة للشافعي، أو البرهان لإمام الحرمين، أو المستصفى للغزالي، أو المحصول للرازي. أو الموافقات للشاطبي، أو من كتاب في الفقه مثل بدائع الصنائع للكاساني، أو الذخيرة للقرافي، أو المجموع للنووي، أو المغني لابن قدامة. ويقول لنا: ارموا بهذا الفقه، فهو الذي أخركم، وهو الذي جمدكم.

وما ذنب الفقه وما ذنب الأمة إذا كان هذا الشخص لا يحسن أن يقرأه، وأن يفهمه، وأن يستفيد منه؟ وما ذنب الفقه إذا كانت الأمة لا تحسن الاستفادة من كنوزه، وتوظيفها في اجتهاد جديد، يراعي تغيير الزمان والمكان والإنسان؟

ومنهم من يريد أن نعرض عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن نمزق كتب الحديث كلها، لأن في هذه الكتب أحاديث ضعيفة، أو أحاديث موضوعة، أو أحاديث لا أصل لها، وأن من المحدثين من عطلوا العقل في مقابل النقل، ومن ناصروا الجمود والتقليد، في مقابلة الاجتهاد والتجديد.

وعيب هؤلاء أنهم لم يغوصوا في أعماق ثقافتنا، ولم يعرفوا ما بذلت هذه الأمة في سبيل الحفاظ على تراث نبيها، وأن الله هيأ لعلم النبوة من نفى عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وعيب هؤلاء أنهم لم يعرفوا أمتهم، ولم يقدروها قدرها، حسبوا أنها أمة بلهاء، وأن علماءها من المغفلين، الذين تروج عليهم الأباطيل، ويخدعهم السراب، وجهلوا أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، لأنها لا توجد بعدها أمة أخرى، تصحح خطأها، وتهديها من ضلالتها. هذا ما أثبته القرآن، وما أيدته السنة، وما صدقه التاريخ.

أما القرآن فهو يقول: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

(الأعراف: ١٨١) فهذه الآية باقية ما بقيت الحياة، وبقي الناس. وكما قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (الأنعام: ٨٩).

وأما السنة، فقد استفاضت الأحاديث الصحاح عن عدد من الصحابة، لا يتصور أن يتواطئوا لا هم ولا من روى عنهم، على الكذب على رسول الله، كل هذه الأحاديث تبشر الأمة بأنه «لا تزال طائفة منها قائمة على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك».

وتسمى هذه الطائفة عند العلماء (الطائفة المنصورة) فهذه الطائفة تمثل صمَام الأمان للأمة، تعلم الجاهلين، وترد الشاردين، وتقوم المنحرفين، حتى تَقوم الساعة.

وأما التاريخ، فقد صدّق القرآن العزيز، وصدق السنة المطهرة، ولم يخل عصر من علماء يقاومون البدع، ويحاربون الباطل، كما قال علي رضي الله عنه: «لا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة».

وكما قال شوقي رحمه الله:

إن الذي خلق الحقيقة علقما لم يخل من أهل الحقيقة جيلا!

ولكن هؤلاء المجددين المزيفين جهلوا القرآن، وجهلوا السنة، وجهلوا التاريخ.

وهؤلاء وأمثالهم هم أدعياء التجديد في عصرنا، ولكنهم للأسف لهم صوت مسموع، ولواء مرفوع.

إنهم الذين سخر منهم أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي حين قال عن أمثالهم: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة؛ الشمس والقمر!

وهم الذين سخر منهم أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته عن (الأزهر) فقال:

لا تحذو حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم أمر منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عُمِّرا
من كل ساع في القديم وهدمه وإذا تقدم للبناية قصرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة والعلم نزرا، والبيان مثرثرا

إننا نؤمن بالتجديد إذا كان تجديدا حقا، ونرحب بالمجددين إذا كانوا مجددين صدقا، أما هؤلاء الذين ذكرنا نماذج لهم، فإن ما دعوا إليه لا يدخل في باب التجديد، بل هو من باب الهدم والتبديد.

إننا نرفض هؤلاء المبددين بقدر رفضنا لدعاة (التقليد) و (التجميد) الذين يريدون أن يبقى كل قديم على قدمه، ولا يرحبون بأي اجتهاد جديد أو فكر جديد، شعارهم: ما ترك الأول للآخر شيئا.. وليس في الإمكان أبدع مما كان.

نحن نرفض الذين يريدون أن يحرموا على الناس أن يفكروا بعقولهم، وأن يجتهدوا لزمانهم، كما اجتهد السابقون لزمانهم. ونرى أن هؤلاء الجامدين يسيئون إلى أنفسهم، وإلى الدين الذي يزعمون أنهم يتكلمون باسمه، وهذا الدين ليس فيه رجال كهنوت، ولا إكليروس، إنما فيه علماء قادرون راسخون مؤهلون لأن يردوا فروعه إلى أصوله، وأن يأتوا البيوت من أبوابها، ويستقوا المياه من منابعها النقية.

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه (لماذا تأخر المسلمون): أن الدين إنما ضاع بين جاحد وجامد، فالجاحد يضلل الناس بجحوده، والجامد يفتنهم بجموده.

تجديد اللغة والأدب:

وكما استعرت المعركة من أجل تجديد الدين بين الدعاة والأدعياء، وبين الصادقين والزائفين، فقد التهبت المعركة كذلك حول اللغة والأدب والتجديد فيهما، بين الأصلاء في اللغة، والدخلاء عليها، وبين أهل الأدب المطبوع وأهل الأدب المصنوع.

ولا ريب أن اللغة من المكونات الأساسية لثقافتنا ولأي ثقافة. ونحن نملك بحمد الله لغة استمرت منذ نحو ثلاثة آلاف سنة، وفيها من الغنى والثراء من المفردات، ومن خصائص الاشتقاق والمصادر والجموع وغيرها ما يجعل لها مزية على غيرها.

ولا عجب أن أنزل الله بها أفضل كتبه وآخرها، الذي تميز بالخلود والإعجاز (القرآن الكريم).

ولا غرو أن وجدنا في هذه اللغة التعبير عن أدق الأشياء المادية، وأعمق

الخلجات النفسية، حتى وجدنا عاطفة كالحب، تعبر عنها تعبيرات مترتبة متصاعدة، لا توجد في لغة أخرى.

كما تعبر عن الإنسان في بطن أمه، بعد ما كان نطفة فعلقة فمضغة فعظاما، فخلقا آخر، هذه مرحلة الجنينية، ثم بعد الولادة يكون طفلا، ووليدا، فرضيعا، ففطيما، فصبيا، فغلاما، فمراهقا، فشابا، فكهلا، فشيخا.

إنها لغة حية أصيلة لا نخشى من انفتاحها على اللغات الأخرى لنستفيد منها إن أمكن ذلك، مثل تعريب بعض الكلمات، بأن تبقى على أصلها الأعجمي، مع تغيير صيغتها بما يناسب العربية مثل التعبير عن (الكيلو) بـ(الكيل) فتقول: قطعت ثلاثين (كيلا) سيرا. والتعبير عن (التلفزيون) بـ(التلفاز) ونحو ذلك.

وأفضل من هذا إيجاد بديل للكلمة الأجنبية من العربية نفسها، وهذا ما تقوم به مجامع اللغة في بلادنا العربية، مثل المذياع للراديو، والهاتف للتليفون، والسيارة والطائرة والقطار ونحوها.

ومثل ذلك (المصطلحات العلمية) في الفيزياء والكيمياء والفلك والطب والصيدلة والزراعة وغيرها، ومثل ذلك المصطلحات الفلسفية والفكرية والاجتماعية، ونحوها مما يتعلق بالعلوم الإنسانية والاجتماعية.

وكثيرا ما تصيب هذه المصطلحات في التعبير عن المفاهيم المترجمة عنها، وأحيانا قد يجانبها الصواب، مثل ترجمة Secularism وتعني فصل الدين عن المجتمع والحياة بـ(العلمانية) فهي - كما يظهر لي - منسوبة إلى العلم (بكسر العين)، زيد فيها الألف والنون، كما في كثير من الكلمات، مثل الروحانية والنورانية والنفسانية والعقلانية، نسبة إلى الروح والنور والنفس والعقل.

وإنما ترجمها من ترجمها بذلك، لأن الذين كانوا يترجمون مشبَّعون بالثقافة الغربية والمفاهيم الغربية، والعلم عندهم مقابل للدين، فمن هنا كانت العلمانية بهذا المعنى في مقابل الدين.

أما نطقها بفتح العين (العَلْمانية) فلا أجد لها وجها، إذ لا يوجد في لغة العرب (عَلْم) حتى ينسب إليه، وإن اختار ذلك للأسف (المعجم الوسيط)، وانتشر هذا على ألسنة كثير من المثقفين!

الانفتاح على اللغات مطلوب، ولكن بشرط أن نحافظ على ذاتية لغتنا، وعلى خصائصها، فهي لغة لها أصولها وقواعدها ونحوها وصرفها وبلاغتها، بوصفها لغة معربة، ولغة فيها الحقيقة والمجاز، والإطناب والإيجاز.

لا مانع من التجديد في تعليم اللغة، وتيسير نحوها ـ من داخلها ـ وخصوصا للناشئة من أبنائها، والاستفادة مما كتبه ابن مضاء الأندلسي، ومما كتبه المحْدثون والمعاصرون من علمائنا، بل وحتى مما كتبه بعض المستشرقين في ذلك، فليس كل ما كتبوه باطلا، والحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها.

أدب اللغة:

ولهذه اللغة أدب فاق آداب اللغات، عمره ألفا سنة، لأمة صنعتها البيان، تتباهى بالشعر، حتى إن القبيلة منهم إذا نبغ فيها شاعر واشتهر هنأتها القبائل الأخرى، وحتى إنهم علقوا أفضل القصائد التي اشتهرت بينهم بالكعبة المقدسة عندهم، وسموها (المعلقات).

وحين بعث فيهم نبي الإسلام، كانت معجزته معجزة بيانية أدبية، من جنس ما نبغوا فيه، وهي (القرآن).

تنوعت فنون الأدب عند العرب، ما بين الشعر بألوانه وأغراضه، وبحوره المختلفة، وما بين النثر بفنونه وقوالبه المتعددة، من الحكم النادرة، والأمثال السائرة، والرسائل والوصايا، والمقامات، والكتابات في شئون الدين والدنيا بأسلوب أدبي. كما نرى في كتب التصوف، وفي كتب الجاحظ ورسائله.

ولا مانع أن تتجدد القوالب في عصرنا، بالاقتباس أو التطعيم، أو الابتكار، كما ابتكروا في الأندلس فن (الموشحات) في الشعر. وكما ابتكروا (التشطير) و(التخميس) فيه.

ولقد رأينا أحمد شوقي في عصرنا يبتكر من بحور الشعر ما لم يذكره الخليل بن أحمد مثل:

حف كاسها الحبب   فهي فضة ذهب

كما أدخل فن (المسرحيات) في الشعر، فأنشأ مسرحية (مجنون ليلى) ومسرحية (مصرع كليو باترا). وتقبلها الذوق العربي.

وأدخل غيره فن (الرباعيات) على غرار (رباعيات الخيام) أو الخماسيات أو السباعيات أو العشريات.

وجاء الشعر الحديث الذي يتقيد بالتفعيلة في البحر، ولا يتقيد بالقافية، ولا بعدد التفعيلات في البيت الواحد. ولا مانع منه إذا كان مضمونه معبرا عن هوية الأمة وثقافتها، على ألا يطغى على الشعر العمودي. الذي تميزت به الأمة، ولا تكاد تحفظ وتروي غيره، فما رأيت أحدا يحفظ قصيدة من الشعر الحر أو يستشهد به.

وكما دخل الشعر الحديث أدبنا، دخلته القصة والرواية، فلا شك أن هذا فن جديد، غير ما عرفه العرب من فن المقامات، أو الملاحم الشعبية، من مثل سيرة بني هلال، أو عنترة بن شداد، أو سيف بن ذي يزن، أو الزير سالم، وغيرها مما تعلق به عامة الناس في العصور الماضية. ولكن هذا الفن منقول ـ ولا شك ـ عن الأدب الغربي، ولا حرج في ذلك.

إنه فن جديد رحب الناس به، وبرع فيه الكثيرون من أمثال توفيق الحكيم، ومحمود تيمور، ومحمد عبد الحليم عبد الله، ويوسف إدريس، ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، ونجيب محفوظ، والطيب صالح، ونجيب الكيلاني، وغيرهم.

ولكن يحدث الخلاف حين يشط واحد من القصاصين، ويغلو في شططه إلى حد يخترق فيه الأسوار المنيعة، ويتجاوز الخطوط الحمر، بدعوى حق الأديب في (الإبداع). فهل حق الأديب حق مطلق لا قيود عليه، أو هو ملتزم ببعض القيود التي يفرضها دين المجتمع وقيمه وتقاليده الراسخة؟

الحق أنه لا يوجد حرية مطلقة في الكون كله. السيارات تسير منضبطة بتعليمات المرور وإشاراته، والبواخر في المحيطات تجري في مسارات محددة رغم سعة المحيط، خشية أن تصطدم بما لا تحمد عقباه، أو تأخذها التيارات إلى ما يسرع بغرقها. . والطائرات ليست حرة في جو السماء على رحابتها، وإنما تطير في

خطوط معلومة، ومدارات مرسومة، بل النجوم في أفلاكها منضبطة بمداراتها، كل في فلك يسبحون. فلماذا يريد الأديب أن يخرج على النظام الكوني كله، ويسبح في فضاء لا تحده حدود، ولا تقيده قيود؟

فإذا لم يكن الأديب ذا دين، فيلزمه أن يحترم دين قومه، على الأقل الأساسيات، أو (الثوابت) التي تعتبرها كل أمة (مقدسات لا تمس) مثل: الله ـ جل جلاله ـ عند أهل الأديان السماوية جميعا، ومثل: القرآن الكريم، والرسول العظيم، وقطعيات الدين عند المسلمين.

والمثقف الحق هو الذي يرعى هذه الثوابت، ويحترمها، ولديه من الآفاق الواسعة ما يسبح فيه، ويحلق بجناحيه، بلا حرج ولا تضييق.

إن أخطر ما تواجه أمة أن تصطدم الثقافة فيها بالدين. والمفروض أن تمتزج الثقافة بالدين، بل أن تكون في رحاب الدين.

الثقافة في مواجهة الدين:

إن أخطر معضلة تعانيها أوطاننا العربية والإسلامية، هي: سيطرة الثقافة المتغربة على أدمغة الكثيرين من أبنائها، وخصوصا الذين يوجهون المؤسسات الثقافية والفكرية، ويقبضون على أزمة التوجيه والتثقيف العام في ديارنا.

فهؤلاء قد رضعوا من لبان الثقافة الغربية، وتغذوا بها، ونشأوا في حضانتها، وغدت لهم مرجعا وإماما، بها يعتصمون، وإليها يحتكمون، وعنها يصدرون.

يتجلى هذا فيما ينشرون من كتب، وما يصدرون من مجلات، وما ينشئونه من أدب وفن، يقرأ أو يسمع أو يذاع أو يمثل ويشاهد، في المسارح والسينمات أو الشاشات الصغيرة.

يقابل هؤلاء حملة الثقافة الإسلامية، المعبرة عن ضمير الأمة، والحاملة لمواريثها، والمجسدة لهويتها. فهم على عكس أولئك، تمسكا بالأصول، وعودة إلى الجذور، وتشبثا بالهوية، فلا يقبلون من الآخرين، إلا ما ترضى عنه عقيدتهم، وما ينسجم مع شريعتهم، وما يتواءم مع قيمهم وأخلاقهم.

وكثيرا ما نرى رحى الحرب دائرة بين الفريقين: الفريق الذي قلد الغرب، ودار في فلكه، وبعد عن أهله، واغترب عن داره، وأخذ عن الغرب الغاية والوسيلة، والأصول والفروع، والشكل والمضمون. وحق على هذا الفريق ما جاء في الحديث الصحيح: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟[1].

ووقف فريق الأصالة ينافح عن أصالته، يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، ويحيي ولا يميت، ولكنه يحذر من معاول الهدم، التي لا تبقي ولا تذر، ويعمل على تحويلها إلى آلات للبناء، وقد قال قائلهم:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم!

وقد تجلى هذا الصراع أظهر ما يكون، وأصرح ما يكون، أخيرا في فتنة رواية «وليمة لأعشاب البحر» التي نشرتها وزارة الثقافة في مصر، والتي أحدثت غليانا في الشارع المصري، حين كتب عنها بعض الناقدين في جريدة (الشعب) المصرية المعارضة، ونقل من ألفاظها ـ المتعلقة بالذات الإلهية وبالقرآن الكريم، وبالرسول محمد، وبتعاليم الإسلام ـ ما لا يتحمله وجدان المسلم وضميره في بلد دينه الرسمي الإسلام، وهو بلد الأزهر، قبلة المسلمين الثقافية. فلا غرو أن ثار طلاب جامعة الأزهر وطالباتها، منادين بمصادرة هذه الرواية ومعاقبة من نشرها وروجها في الناس.

ولقد قرأت هذه الرواية لأحكم لها أو عليها عن معرفة، فوجدتها من أولها إلى آخرها لا تحمل أي توقير لله تعالى ولرسوله، ولا لكتابه، ولا لشريعته، وفيها من العبارات المستخفة بالألوهية وبالنبوة وبالدين الكثير الكثير. بعضها على لسان بعض شخصيات الرواية، وبعضها في السرد القصصي للمؤلف نفسه.

كما أنها تتحدث عن العلاقات الجنسية بعبارات مكشوفة، مما يتحدث به سفلة الناس وأراذلهم، مما يخدش الحياء العام، ويشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

---

(١) متفق عليه عن أبي سعيد الخدري، كما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي رقم (١٧٠٨).

وقد كان جل سخط الساخطين، ونقد الناقدين منصبا على نشر هذه الرواية من قبل الدولة ممثلة في وزارة الثقافة.

وكانت حجة وزارة الثقافة أنها لا تحجر على (إبداع) الأدباء، وأن الرواية ليس فيها ما يناقض الدين، وألفت لذلك لجنة من الأدباء والنقاد، زعمت أن الرواية ليس فيها ما يسيء إلى الدين.

والخطأ الأساسي هنا: أن اللجنة التي ألفتها الوزارة ليست ذات اختصاص في القضية المثارة، فلو كان المطلوب هو الحكم على المستوى الأدبي للرواية، وهل تستحق درجة جيد أو مقبول، أو لا تستحق؟ وهل تمنح جائزة أو لا؟ لكانت هذه اللجنة مقبولة. أما أن يكون المطلوب هو: هل في هذه الرواية ما يسيء إلى الدين أو لا؟ وهل فيها ما يخرج بقائله إلى الكفر أو لا؟ فهذا ليس شأن هذه اللجنة، ولا من اختصاصها. وقد قال تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ (الفرقان: ٥٩) وقال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر: ١٤).

وقد أفتت جهة الاختصاص ـ وهو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الذي هو خبير الدولة في الشأن الإسلامي ـ بفتوى تاريخية موثقة بالأدلة من الرواية نفسها، وحكمت بأن الرواية تحقر الأديان، وتتطاول على ذات الله تعالى، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى القرآن الكريم، وعلى الآداب العامة، وأن ما جاء فيها «خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة، وانتهاك للمقدسات الدينية والشرائع السماوية، والآداب العامة، والقيم القومية، ويثير الفتن، ويزعزع تماسك وحدة الأمة . . » ويضع بيان الأزهر التاريخي على عاتق من نشر هذه الرواية المسئولية الكاملة عن هذا التجاوز، والآثار المترتبة عليه دينيا واجتماعيا . . إلخ.

وقد سئل شيخ الأزهر رئيس مجمع البحوث الدكتور محمد سيد طنطاوي: هل يعتبر ما ورد في هذه الرواية كفرا؟ فقال: من الواضح أن الخروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة يعد كفرا بالإجماع. وأن التطاول على الله تعالى ورسله وكتبه كفر بلا نزاع.

وببيان مجمع البحوث قطعت جهيزة قول كل خطيب، وإن كان من المؤسف أن وزارة الثقافة ظلت تماحك وتجادل، وتدعي أنها تنشر (الثقافة المستنيرة) لتواجه بها

(الظلاميين) الذين يرفضون ثقافة التنوير. فهل هذه الرواية وأمثالها مما تتبناه وزارة الثقافة من (التنوير)؟ وما (الظلام) إذن إن كان هذا هو (النور)؟

الحقيقة أن هذه الرواية وأمثالها من باب التبوير لا من باب التنوير. لقد أخطئوا في وضع النقطة فوضعوها فوق الحرف، وصوابها أن تكون تحته.

إن مشكلة المؤسسات الثقافية في أوطاننا: أنها يقوم عليها أناس غرباء عن أمتهم، غرباء عن عقائدها وقيمها وشرائعها، استنبتوا في غير أرضها، وربوا في غير أحضانها، وقرءوا غير كتابها، وصلوا إلى غير قبلتها. ولذلك عاشوا في واد، والأمة في واد آخر. الأمة تشرِّق وهم يغرِّبون، وتعرب وهم يعجمون، وتحاول أن تبني وهم يهدمون.

التنوير بين الحقيقة والتزييف:

وقضية (التنوير) هذه قد شابها كثير من الضباب والبلبلة على يد كثير من أصحاب الأقلام الذين خلطوا التنوير بالتزوير، أو تركوا مفهومه غائمًا رجراجا، غير محدد ولا واضح، يتخذ منه الغلاة من دعاة اليمين ودعاة اليسار من (عبيد الفكر الغربي) أداة لتغييب هوية الأمة، وتحريف مسارها الصحيح لحساب أعدائها.

وقد كتب في ذلك كثيرون من المؤيدين والمعارضين، ولا سيما بعد رواية (الوليمة) ولكن أختار هنا نموذجا يعتبر غاية في الاعتدال والإنصاف، قدمه الشاعر والكاتب المعروف الأستاذ فاروق جويدة في صحيفة (الأهرام). وقد كتب في ذلك أكثر من مقال. وأكتفي هنا باقتباس فقرات من مقاله في ٣٠ يوليو سنة ٢٠٠٠م. قال تحت عنوان (التنوير وغياب الهوية):

«في قضية التنوير يجب أن نفرق بين ثلاثة مواقف على المستوى الفكري والثقافي. هناك فرق بين التفاعل الثقافي.. والنقل الثقافي.. والغزو الثقافي.

إن التفاعل الثقافي حوار بين ثقافتين على أرض واحدة وأهم ما في هذا الحوار أن يكون متكافئا من حيث التأثير والتأثر بحيث لا يستبيح أحدهما الآخر أو يجور عليه..

أما النقل الثقافي . . فهو أن أجلس أمام الآخر لكي يلقنني ما يريد ابتداء بالسياسة وانتهاء بالفكر مروراً على النقل الأعمى لكل مظاهر السلوك دون وعي أو اختيار أو تفكير .

أما الغزو الثقافي . . فهو أن يكون الهدف الوحيد للرسالة الثقافية هدفا سياسيا صريحا وواضحا ولا خلاف عليه حتى وإن تخفى في ثياب ثقافية مبهرة . . إن المشكلة الأساسية الآن أن هذه المواقف الثلاثة تتداخل أحيانًا في بعضها بحيث يصعب الفصل بينها . . ولكن في ظل ارتفاع درجة الوعي الفكري والسياسي لا ينبغي أبدًا أن تغيب عنا هذه الوجوه لأن المسافة بينها بعيدة جدًا وإن كانت أحيانًا تبدو قريبة .

إن التفاعل بين ثقافتين هو أرقى درجات الحوار بين الحضارات الإنسانية . . وهناك ثقافات استطاعت أن تعيش وأن تستوعب الآخر وتتأثر به وتؤثر فيه . . ولعل النموذج الواضح في التاريخ هو فترة الحكم الإسلامي للأندلس وذلك التقارب الذي شهدته هذه المنطقة من العالم بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية في أوروبا .

لقد أثمر هذا التفاعل الخلاق صورة جديدة للحضارة الإنسانية في الطب والعلوم والآداب والفنون . . وكانت جميعها شواهد حية على أن الثقافات يمكن أن تشارك في دعم مسيرة الإنسان وإن اختلفت منابعها . .

ولكن البعض يتصور أن النقل الثقافي يكفينا وأن ترجمة رواية أو كتاب أو نشر قصة جنسية هو أفضل وسائل التنوير . . والمشكلة أن دورنا حتى الآن ما زال مقصوراً على استخدام وسائل الحضارة دون أن نشارك في صنعها . . عندما انبهرت أجيال سبقت بفكر جان جاك روسو وفولتير حول قضايا الحرية وحقوق الإنسان وإرادة الشعوب كان ذلك انبهاراً إيجابيًا واعيا وكان تنويراً حقيقيا لأنه حرك العقول وأثار الأفكار والمشاعر .

ولكن عندما يتصور البعض أن التنوير الآن هو الكتابة بلغة الجسد كما يسميها أصحابها أو الاعتداء على قدسية العقائد وإهانتها والتطاول على الخالق سبحانه . . أو ترويج نماذج سلوكية ساقطة أو السخرية من رموزنا أو رص نثر هزيل قبيح

يطلقون عليه قصيدة النثر . . أو استخدام كل أساليب الفجاجة والإسفاف في الكتابة تحت دعوى الإبداع . . أو إعطاء جوائز الدولة لنكرات لا تستحقها وحجبها عن رموز الثقافة الحقيقية أو التشكيك في كل جذورنا الثقافية والفكرية والحضارية وامتهانها . . إن هذا خطأ في فهم معنى كلمة تنوير . إن امتهان القيم الحقيقية للثقافة العربية تحت دعاوى التنوير أكبر خطيئة في حق التنوير نفسه .

وهنا يمكن أن نقترب من أسوأ أنواع العلاقات بين الثقافات وهو الغزو الثقافي لأنه يحمل في حقيقته مطامع سياسية ويعود بنا إلي عصور مضت حاولت السياسة أن تخفي وجهها الحقيقي خلف مطامع ومصالح كانت هي الهدف والغاية وإن تخفت في الثقافة والفكر .

ولهذا فإن أسوأ ما يمكن أن تتعرض له ثقافات الشعوب الآن هو تلك اللعبة التي تحمل اسم التنوير . . وتخفي أغراضًا سياسية مشبوهة أو تصبح أدوات هدم وتخريب لمقومات الشعوب في الفكر والسلوك والعقائد . .

ولهذا يجب أن نكون على وعي بهذا كله . . وألا نفرط بسهولة في مقوماتنا الفكرية والثقافية لأنها آخر ما بقي لنا . . ويجب أيضا أن نكون على وعي بكل جوانب اللعبة على مستواها السياسي والثقافي معا . .

إذا كانت رسالة التنوير هدفها التفاعل والحوار بين ثقافتين فهذا يتطلب أولا أن ننمي قدرتنا على الحوار . . وأن نوفر مناخ الحرية في الفكر والسياسة بما يضمن لنا الندية في المشاركة من حيث التأثير والتأثر في وقت واحد .

وهذا يتطلب أيضا أن نحمي جذورنا وتاريخنا ومقومات وجودنا فإذا كان الحوار مع الآخر مطلوبا فإن النقل مرفوض . . والغزو الآن لا يأتي بالجيوش ولكنه يأتي مع الهواء والماء والدواء والساندوتشات وبنطلونات الجينز وكتابات الجسد وأغاني مادونا وأفلام ستالوني ومايكل جاكسون وناطحات السحاب القبيحة والأبراج المشوهة . . ومجموعة من المروجين الذين تخصصوا في بيع السلع الرديئة من حملة الأقلام والمباخر .

إن ما يحدث عندنا الآن باسم الإبداع والتنوير امتهان لكل مقومات الإبداع . . واعتداء على كل رسالة نبيلة يسعى إليها التنوير .

إن مواكب التنوير الآن لم تستوعب تراث أمتها . . ولم تدرك عمق جذورها الحقيقية ؛ لأنها طحالب هشة تسلقت على وجه الأرض دون أن يكون لها امتداد في عمق هذا الوطن . . إنها نباتات مستنسخة في علب بلورية لم تحرقها حرارة الشمس . . ولم تلفحها نسمات الصيف الحارقة ولم تشرب مياه النيل .

إنها لمبات فوسفورية سرعان ما تضيء وتخبو . .

من هنا يمكن أن نضع أقدامنا على الطريق الذي نريد . . إن قضية التنوير غاية في الأهمية لأنها تعني المستقبل . . وتعني التطور في الفكر والرؤى . . وتعني أيضا حرية الإبداع وحقوق الإنسان . . لقد ارتبطت في جوانبها السياسية والثقافية بأشياء عظيمة في تاريخ البشر . . ونحن أحوج ما نكون لجوانبها الإيجابية .

نريد التنوير الذي يشعر الإنسان بآدميته وحقه في الحياة الكريمة وأن يفكر دون خوف من سلطان أو رقيب . .

نريد الحرية السياسية التي تتمثل في ديمقراطية حقيقية للشعب يكون فيها صاحب الكلمة والقرار .

نريد أن نحمي جذورنا وتاريخنا وهويتنا بحيث نأخذ من الآخر ما يناسبنا ويكون من حقنا أن نرفضه إذا تخفى وراء قناع مزيف سواء كان سياسيا أو أيدلوجيا أو حتى تكنولوجيا .

ومن هنا فإننا وبنفس درجة حماسنا للتنوير . . نرفضه رفضا كاملا إذا كان هدفه تغييب وعينا . . وتدمير هويتنا . . وتشويه مقوماتنا ومقدساتنا . .

فأهلا بمواكب التنوير الواعي الأمين . . وألف لا . . لمواكب التنوير الأعمى المغرض .

ولا ينبغي أن تتحول قضية التنوير إلى معارك وتصفيات فكرية ؛ لأن أهم ما يميز رواد التنوير الحقيقي هو رحابة الفكر واتساع الرؤى وشموليتها واحترام لغة الحوار . . وحينما تفقد مواكب التنوير هذه السمات فإنها تتحول إلى مواكب صخب وضجيج فارغ ، بل إنها تصبح نوعا من الإرهاب الأعمى باسم الفكر .

إننا في حاجة إلى دعاة التنوير الحقيقي . . ولسنا في حاجة إلي سماسرة الأفكار المبرمجة . . وكتائب الاستقطاب السياسي من أصحاب المصالح . .

وليكن التنوير هدفا ورسالة سعيا إلى تأكيد الهوية وتأصيل الجذور . . وزيادة الوعي والتفاعل البناء مع الثقافات الأخرى تأثرا وتأثيرا» . انتهى .

وهذا الكلام التنويري الحقيقي لايحتاج إلى تعليق .

الانفتاح المحذور

- الانفتاح قبل النضج
- الانفتاح المتساهل في الأخذ
- الانفتاح المبهور بثقافة الغير

الانفتاح المحذور

إن المسلم الحق متفتح على الثقافات المختلفة، ولكن بشروط وضوابط، تجعل انفتاحه نافعا و مأمونا، ولا تجعل منه خطرا عليه، أي على عقله ونفسه، على دينه وعقيدته، على مسلماته العقدية والفكرية.

فهذا النوع من الانفتاح محذور، يخشى على صاحبه الغرق في بحره، إن لم يأخذ له الأهبة، ويعد له أسباب الاحتياط.

١ ـ الانفتاح قبل النضج

من الانفتاح المحذور: أن يكون قبل مرحلة النضج، فمن كان طري العود، ضعيف البنية، قليل الخبرة، لا يسابق الأبطال، ولا يدخل حلبتهم، وإلا سقط في أول الطريق، وخرج من السباق.

إنما يدخل حلبة السباق من كان مهيأ لها بالفطرة الموهوبة، والدربة المكسوبة، ومن أعده مدربوه لملاقاة الأبطال والمنافسين.

ولعل هذا كان سبب ما روي من منع النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب أن ينظر في صحائف من التوراة، وأنكر عليه ذلك بشدة، وقال له: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ (أي متحيرون ومترددون في ملتكم) لقد جئتكم بها بيضاء نقية. والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني»[١].

---

(١) رواه أحمد ٣٨٧/٣ عن جابر، وقد ضعف إسناده، لأن فيه مجالد بن سعيد، انظر: تخريج الحديث رقم (١٥١٥٦) من المسند بتحقيق الأرناؤوط وزملائه، وقد يتقوى بمرسل رجاله ثقات من مراسيل الحسن البصري، رواه ابن الضريس في فضائل القرآن، وأبو عبيد في غريب الحديث، والبيهقي في الشعب. كما في المصدر المذكور. وانظر: شواهد هذا الحديث في (مجمع الزوائد) للهيثمي (١٧٣/١، ١٧٤).

فلم كان هذا الاشتداد في الإنكار؟ ما ذلك إلا لأنه كان في مرحلة التأسيس والتكوين للعقيدة و الملة، ولا ينبغي أن يشوش عليها في هذه المرحلة الخطيرة، حتى تترسخ أسسها، ويقوم بنيانها، ويخرج زرعها شطأه، ويستغلظ ويستوي على سوقه، ثم بعد ذلك تنفتح على ما شاءت من الديانات والثقافات والحضارات.

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم شدد ـ في هذا الحديث إن صح ـ على عمر بن الخطاب، وهو من كبار أصحابه، كل هذا التشديد، فقد رأيناه عليه الصلاة والسلام لا يتخذ مثل هذا الموقف المتشدد مع بعض صغار الصحابة، مثل عبد الله بن عمرو بن العاص، الذي أخبره أنه سيقرأ الكتابين: التوراة والقرآن.

فقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «رأيت فيما يرى النائم: لكأن في أحد إصبعيَّ سمنا، والأخرى عسلا، فأنا ألعقهما، فلما أصبحت، ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: تقرأ الكتابين: التوراة والقرآن، فكان يقرأهما»[1].

ويبدو أن ذلك أجيز، بعد أن رسخت قواعد الإسلام. و عرف علماء الأمة أن ابن عمرو كان يقرأ في التوراة و ملحقاتها. و لهذا ينبغي أن يَتوقف فيما جاء من أحاديث موقوفة على ابن عمرو في الغيبيات ونحوها مما لا مجال للرأي فيه، خشية أن يكون قد أخذه من أهل الكتاب، فهم قد حرفوا و بدلوا.

ولعل هذا الترخيص لابن عمرو هو ما جعل عددا من كبار علماء الأمة يدرسون التوراة و ملحقاتها و الأناجيل و توابعها، ليعرفوا ما بقي فيها من حق، ويردوا على ما فيها من باطل، منذ عهد أبي محمد بن حزم في كتاب (الفصل في الملل و النحل) و غيره من الكتَّاب في تاريخ الأديان و الفرق، إلى الشيخ رحمة الله الهندي صاحب الكتاب القيم (إظهار الحق) في الرد على شبهات مبشري النصارى، إلى

---

(١) رواه: أحمد في المسند من طريق قتيبة بن سعيد عن ابن لهيعة عن وهب بن عبدالله.
قال محققو المسند: إسناده حسن، أحاديث قتيبة عن ابن لهيعة حسان، وباقي رجاله ثقات. وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٢٨٦) و الخطيب في (الفقيه و المتفقه) (٢/١٣٥) كما أخرجه الطحاوي في (شرح مشكل الآثار) بإسناد آخر. انظر: الحديث (٧٠٦٧) طبعة الرسالة. تحقيق شعيب الأرناؤوط وزملائه الخمسة.

الداعية المعاصر أحمد ديدات في جنوب إفريقيا، و مثله الداعية الموفق الدكتور جمال الدين بدوي في كندا وأمريكا الشمالية.

الذي يهمنا تأكيده هنا هو المنع و التشديد من الانفتاح قبل الرسوخ و التمكن و النضج كما فعل الرسول الكريم مع عمر.

وإذا كان هذا التشديد على مستوى الأمة في مرحلة التأسيس، فينبغي أن نقف مثل هذا الموقف من الفرد في مرحلة التكوين، وقبل وصوله إلى النضج والاستقلال في الفكر، فهنا يكون الانفتاح محذورا وخطرا عليه.

لابد أن تكون لديه حصيلة جيدة من الثقافة الإسلامية الأصيلة، المستقاة من الينابيع الصافية، تجيب المسلم عن تساؤلاته التي تحوك في صدره، أو ينطلق بها لسانه، عن العقيدة وعن الشريعة، عن الدين والدولة، حتى يقف على أرض صلبة، وتتكون لديه (مناعة) ضد أي ميكروبات مؤذية، ويستطيع بها أن يرد الشبهات التي تعترضه في طريقه، بما عنده من بينات وبصائر.

ومن هنا أوصى أكثر من مؤتمر إسلامي جمع علماء المسلمين ودعاتهم: ألا يبعث المسلمون بأولادهم الصغار إلى التعلم في خارج البلاد الإسلامية إلا بعد تخرجهم في الجامعات في بلادهم، فلا يذهبون في المرحلة الجامعية ـ بله الثانوية ـ إلى البلاد الأجنبية، وهم لم يصلب عودهم، فيخشى عليهم أن تغزو عقولهم الشبهات، وتغزو قلوبهم الشهوات.

والشعوب المختلفة الآن تخاف من عواقب الانفتاح الثقافي، والبث المباشر، والغزو الإعلامي، حتى إن فرنسا لتحذر أبناءها من خطر الغزو الإعلامي الأمريكي عن طريق الأفلام والمسلسلات الأمريكية الشهيرة، التي تشد الناس إليها شدا، وخصوصا جيل الشباب والفتيات التي تفعل في نفوسهم فعل السحر، برغم أن فرنسا وأمريكا تنتسبان إلى حضارة واحدة، هي الحضارة الغربية.

٢ـ الانفتاح المتساهل في الأخذ والاقتباس

ومن الانفتاح المحذور: الانفتاح المتساهل، الذي لا حدود له ولا ضوابط، فهو يأخذ كل ما يجد، دون أن يبحث فيما يصح وما لا يصح، وما قام عليه البرهان،

وما لا برهان عليه، وما ينفع وما يضر، وما يبني وما يهدم، وما يحتاج إليه، وما لا يحتاج إليه، وما يتفق مع ثوابت العقل والنقل وما لا يتفق.

وهذا ما حدث لأمتنا مع ما عرف في تراثنا الثقافي باسم (الإسرائيليات). فقد راجت هذه الإسرائيليات عند كثير من كبار علماء الأمة من المفسرين والمحدثين ونحوهم رواجًا يعجب المرء له ويستغربه من أمثالهم.

وليتهم أخذوا منهم الصحيح من المنقول، والصريح من المعقول، والثابت من العلم، بل أخذوا كثيرا بما شاع عند عوامهم، ولم يكن بالعلم الموثق أو المكتوب عندهم، وقد بدأ هذا التسرب ـ للأسف الشديد ـ من عهد مبكر. أي من عهد الصحابة والتابعين، على أيدي أمثال: كعب الأحبار، ووهب بن منبه وغيرهما ممن دخل في الإسلام من أهل الكتاب. وكذلك ما وصل إلى المسلمين من كتب اليهود والنصارى.

ولكن التسرب كان في أول الأمر قليلا ثم كثر، ضيقا ثم اتسع، عفويا ثم طفق يأخذ صفة الكيد والتدبير. والدس المتعمد، على ما يظهر.

وكأن اليهودية حين منيت أمام دعوة الإسلام بالهزيمة العسكرية، في المدينة وخيبر وغيرهما، أرادت أن تقاوم الإسلام بسلاح آخر يعوضها عن هزيمتها. وذلك هو سلاح الغزو الثقافي، فدست إسرائيلياتها المنكرة، في غفلة من الأمة، فلم تمض برهة حتى غصت بها كتب المسلمين.

هذا مع أن القرآن الكريم، قد سجل على أهل الكتاب عامة واليهود خاصة، تحريفهم لكتبهم، وقولهم على الله بغير علم، وإن منهم لفريقا ﴿يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥). ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ (البقرة: ٧٨).

وأنهم ﴿ ...يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (البقرة: ٧٩) وأنهم ﴿ ..نَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة: ١٣) وأنهم

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ (النساء: ٤٦ والمائدة: ١٣) إلى آخر ما وصفهم الله تعالى به من صفات السوء.

فكيف مع هذا تساهل المسلمون في الأخذ عن أهل الكتاب وعن بني إسرائيل على الخصوص؟

لعل من أسباب هذا: ما فهموه من حديث البخاري عن عبدالله بن عمرو مرفوعا: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار». وقد ذكره الإمام ابن كثير في مقدمة تفسيره مستدلا به على جواز التحدث عنهم فيما لا نعلم كذبه من ديننا.

وقد عقب على ذلك العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ فقال وأحسن فيما قال: «إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه ـ شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن، وجعله قولا أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها ـ شيء آخر، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه! وحاشا لله ولكتابه من ذلك.

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذ أذن بالتحدث عنهم ـ أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم. فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غَفْراً.

ومن الكلمات البليغة المعبرة عن الإنكار والسخط على هذه الإسرائيليات، ووجوب تنزيه القرآن عنها: كلمة لابن عباس رواها البخاري في صحيحه، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير، عند تفسير الآية ٧٩ من سورة البقرة. فقال ابن عباس: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرءونه محضا لم يشب! وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدا قط سألكم عن الذي أنزل إليكم».

وهذه الموعظة القوية الرائعة، رواها البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه[1].

إن المسلم حين ينفتح على ثقافة الآخرين، لا يأخذها بعجرها وبجرها، وحقها وباطلها، بل يأخذ منها الحق، ويدع الباطل، يأخذ ما يتفق مع صحيح النقل، وصريح العقل، وثوابت العلم، ويدع ما يخالف ذلك.

أما أن يفتح جعبته ليملأها بالغث والسمين، والرخيص والثمين، فهذا ما لا يقبله منطق الإسلام.

وهذا للأسف ما وقع فيه كثير من المسلمين في عصرنا بالنسبة للثقافة الغربية، فقد أخذوها بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب، وزعموا أن الثقافة لابد أن تؤخذ بجذورها الفلسفية، وقيمها المعرفية والأخلاقية، وتوجهاتها الاجتماعية والسياسية، وأنظمتها الاقتصادية والتشريعية، ولا يكفي أخذ الجانب العلمي أو التكنولوجي أو الإداري والتنظيمي فيها. وهو ما ننكره، وقد ناقشناه في بعض كتبنا[2].

٣ـ الانفتاح المبهور بثقافة الغير

ومن الانفتاح المحذور أيضا: الانفتاح المبهور بثقافة الآخر، حين ينظر إليه مضخما من شأنه، معظما من فكره، شاعرا بالدونية تجاهه لسبب أو لآخر، فكل ما قاله هذا الآخر، فهو صدق، وكل ما رآه فهو صواب، وكل ما فعله فهو جميل، أي أنه أضفى عليه نوعا من (التأليه) بالفعل، وإن لم يكن تأليها بالقول.

وقد وقع هذا في تاريخنا مرتين بارزتين:

المرة الأولى مع الفلسفة اليونانية:

مع الثقافة الإغريقية أو الفلسفة اليونانية، حين ترجم المسلمون كتبها، فبهروا بها، وأخذهم الإعجاب بأهلها كل مأخذ، وخصوصا أن هذه الفلسفة كانت

---

(١) مقدمة عمدة التفسير أحمد محمد شاكر ج١ ص ١٩. وانظر: كتابنا (ثقافة الداعية): الإعراض عن الإسرائيليات ص٤١ ـ ٤٦.

(٢) انظر كتابنا (الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا) في مناقشة رأي توينبي في اقتباس الحضارات ص١٢٩ ـ ١٣٩، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت.

ممزوجة بالعلوم الطبيعية والرياضية، وكانت هذه معدودة من شعب الفلسفة، ومخلوطة بالفلسفة الميتافيزيقية، أي المتعلقة بالألوهية وما وراء الطبيعة، وظن المتأثرون بالفلسفة من المسلمين أن الذين وصلوا في العلوم والرياضيات إلى ما وصلوا إليه من الدقة والصواب، في مثل الكسوف والخسوف ونحوهما، لا يمكن أن يخطئوا فيما وراء الطبيعة.

وهذا ما نبه عليه الإمام أبو حامد الغزالي ورد عليه وبين ضعفه بمنطقه القوي، وذلك في كتابه الفريد (المنقذ من الضلال).

والمرة الثانية مع الثقافة الغربية:

مع الثقافة الغربية الحديثة، التي غزت أمتنا في هذا العصر، حيث دخلت أوطاننا العربية الإسلامية تحت سلطان الاستعمار المنتصر، واستطاعت هذه الثقافة بوسائل متعددة.. وبأساليب متنوعة[1]، أن تؤثر في عقول أبناء الأمة وفي أنفسها وضمائرها، وأن تغير كثيرا من المفاهيم والقيم الموروثة، وكثيرا من التقاليد والسلوكيات المستقرة، وهو ما عرف باسم (الغزو الفكري) أو (الاستعمار الثقافي).

وساعد على نجاح هذا الغزو: أن المسلمين كانوا في أردأ أحوالهم الثقافية والاجتماعية، وقد بلغ منهم التخلف مبلغه في كل نواحي الحياة، التي ضربت بالعفن، فلا اجتهاد في الفقه، ولا إبداع في الأدب، ولا ابتكار في الصناعة، ولا حركة في الحياة، وأسوأ من هذا كله الرضا بهذا المستوى الدون، وتبريره بما لا يقبله عقل صريح، ولا نقل صحيح، مثل قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئا.. وليس في الإمكان أبدع مما كان!

وقد شاعت أفكار وتقاليد تلبس لبوس الدين، والدين الصحيح منها براء، مثل فهم (القدر) على أنه (الجبر) وفهم (التوكل) على أنه (التواكل)، وفهم(القناعة)

---

(١) شرحنا ذلك في كتابنا (الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا) فصل (كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع؟).

على أنها (الرضا بالدون)، وفهم(الصبر) على أنه (الخنوع للطغيان)، وفهم(التقوى) على أنها(الدروشة) وفهم (الزهد) على أنه (إهمال الحياة)، وفهم (طاعة أولي الأمر) على أنها (السير في ركابهم). وفهم (الشورى) على أنها (مُعْلِمة لا ملزمة). وفهم (التفاضل في الرزق) على أنه (إقرار التظالم في المجتمع) وفَهم (قوامة الرجل) في الأسرة على أنها (قهر المرأة) وحبسها في البيت، ومنعها من التعلم والعمل. إلى غير ذلك من أنواع التردي الفكري والخلقي، الذي أشاع النزعة الأنانية والسلبية، وأمات الروح الجماعية والجهادية في الأمة، حتى انتشرت فيها مثل هذه الأمثال: (إذا كان لك عند الكلب حاجة، قل له: يا سيدي! دارهم ما دمت في دارهم. اللي يتزوج أمي أقول له: يا عمي. العين لا تعلو على الحاجب).

كان ذلك هو وضعنا عندما جاء الاستعمار إلينا، كنا في الحالة التي سماها المفكر الجزائري مالك بن نبي (قابلية الاستعمار) وهي التي شرحها المفكر المصري الشيخ محمد الغزالي في أول كتاب له (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) حين ذكر أن الأمم يهزمها الأعداء، ويقهرها الاحتلال، بعد أن يصيبها الاختلال والاعتلال، واستدل على ذلك بما ذكره القرآن في أوائل سورة الإسراء في قصة بني إسرائيل، حين أفسدوا في الأرض مرتين، فسلط الله عليهم في كل مرة من يحتل الأرض، ويجوس خلال الديار، ويتحكم في الرقاب، وكان وعدا مفعولا.

وكان الغرب عندما غزانا في أوج قوته، فلا عجب أن تنتصر القوة على الضعف، والقدرة على العجز، والعلم على الجهل، والنظام على الفوضى، والانضباط على التسيب.

ولا غرو أن يبهر الغرب بمعارفه وثقافته الأفكار، ويخطف ببريقه الأبصار، وأن يشعر المغزوون بدونيتهم أمام علوه، ويبوهنهم أمام جبروته، وأن يظنوا أن قوته المادية دليل على قوته المعنوية، فأخذ الكثيرون ـ وخصوصا من علية القوم، والطبقات التي يسمونها (الراقية) ـ يقلدونه ويحاكونه في التفكير وفي السلوك، والمغلوب ـ كما يقرر ابن خلدون ـ مولع بتقليد الغالب.

والفرق بين تأثير الفلسفة اليونانية قديما في المسلمين، وتأثير الثقافة والحضارة الغربية حديثا: أن تأثير الفلسفة اليونانية كان في الخاصة وربما خاصة الخاصة.

أما تأثير الثقافة الغربية في العصر الحديث، فهو تأثير كاسح غالب، أثر في النخب، كما أثر في الجماهير، وإن كان تأثيره في النخب أوضح وأقوى، ولعل سبب هذا أن لدى عصرنا وسائل للتأثير الفكري و الثقافي ولإشاعته وتعميمه، لم يكن يملكها السابقون، وهي: مؤسسات التعليم والثقافة والإعلام، وأدواتها الجبارة.

وعلى الحراس الأمناء الأيقاظ لعقل الأمة وضميرها، أن يحافظوا عليهما من الاختراق، وأن يقفوا بالمرصاد لمواجهة هذا الغزو الخطير، وخصوصا اليوم في عصر ما يسمونه (العولمة) التي تنفِّقها أمريكا في العالم، وهي عولمة اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية[1].

والذي يهمنا منها هنا، هو: الجانب الثقافي، الذي به تتمايز الأمم بعضها عن بعض، ونحن أمة لنا رسالتنا المتميزة، التي كنا بها أمة وسطا، وكنا شهداء على الناس، وخير أمة أخرجت للناس، لا بعرق ولا بلون ولا بأرض، ولكن برسالتنا الربانية الإنسانية الأخلاقية العالمية المتوازنة والمتكاملة، والتي عبرت عنها ثقافتنا الأصيلة، المستمدة من ينابيعنا الصافية، هذه الثقافة المعتزة بذاتها، الشامخة بأصولها، المنفتحة على غيرها، ولكنها ترفض رفضا باتا أن تذوب في غيرها، وأن تضيع شخصيتها، وتفقد مقوماتها وخصائصها الذاتية.

فهذا هو شعارنا الذي يجب أن نعلنه ونتمسك به في التعامل مع الثقافات المختلفة وهو: تماسك بلا انغلاق، وانفتاح بلا ذوبان.

---

(١) انظر: كتابنا (المسلمون والعولمة) وخصوصا فصل (عولمة الثقافة) نشر (الدار الإسلامية للتوزيع والنشر) بالقاهرة.

نماذج من تراثنا

- أبو حامد الغزالى
- أبو الوليد ابن رشد

نماذج من تراثنا

في تراثنا الغني أمثلة ونماذج شتى لرجال كبار، انفتحوا على ثقافات الأمم، واطلعوا عليها، واقتبسوا من حقها وصوابها، وأعرضوا عن باطلها وخطئها، وكل فكر بشري معرض للصواب وللخطأ، والاستقامة والانحراف، والحكيم البصير هو من يأخذ الصواب من كل ثقافة ويدع خطأها، ويستفيد من فكرها المستقيم، ويضرب صفحا عن المائل والمنحرف.

حتى الكتب الدينية غير المعصومة و غير المضمونة الحفظ من الله تبارك وتعالى، دخلها التحريف والتبديل، اللفظي والمعنوي، فلا يؤخذ كل ما فيها على أنه من كلمات الله سبحانه، بعد أن استيقنا بالأدلة العقلية والنقلية: أنها اختلطت بأقوال البشر، وأوهام البشر، وأهواء البشر.

ولا حرج على الراسخين في العلم أن يقرءوا ما شاءوا من كتب الدين والدنيا، ما داموا يقفون على أرض صلبة، من العلم المتمكن، والفكر الأصيل، والقلب المطمئن باليقين.

من هذه النماذج في تراثنا، أكتفي بذكر علمين اثنين لهما مقامهما ووزنهما، الراجح عند علماء أمتنا، وأثرهما البارز في تراثها، وإن اختلف في شأنهما الناس، كما هو شأن العظماء من الرجال في كل زمان ومكان: علم من المشرق الإسلامي، وعلم من مغربه، وهما:

الإمام أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)

الإمام أبو الوليد ابن رشيد الحفيد (ت: ٥٩٠هـ)

أبو حامد الغزالي

أما إمامنا الأول أبو حامد الغزالي الذي منحه علماء الأمة لقب (حجة الإسلام) فقد رأيناه كيف خاض لجج الثقافات المتباينة، والفلسفات المتنوعة، وخرج من هذه السباحة بحمد الله تعالى سليما، لم يغرق في يمّها، ولم تبتلعه حيتانها، بل صاد من لئالئها ما صاد، واكتشف من أعماقها ما اكتشف، وقد حكى ذلك عن نفسه في مقدمة كتابه البديع الذي يروي فيه سيرته الذاتية (المنقذ من الضلال). قال رحمه الله:

«سألتني أيها الأخ في الدين، أن أبث إليك غاية العلوم، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلى يفاع[1] الاستبصار.

وما استفدته أولا من علم الكلام.

وما اجتويته[2] ثانيا: من طرق أهل التعليم، القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام.

وما ازدريته، ثالثا: من طرق التفلسف.

وما ارتضيته، آخرا: من طريقة التصوف.

وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق، من لباب الحق.

---

(١) اليفاع: ما ارتفع من الأرض.

(٢) تقول: اجتويت البلد إذا كرهت المقام به وإن كنت في نعمة.

وما صرفني عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة.

وما ردني إلى معاودتي، (بنيسابور) بعد طول المدة.

فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك، بعد الوقوف على صدق رغبتك، وقلت مستعينا بالله، ومتوكلا عليه، ومستوقفا منه، وملتجئا إليه:

اعلموا - أحسن الله تعالى، إرشادكم، وألان للحق قيادكم -: أن اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأمة في المذاهب مع كثرة الفرق وتباين الطرق: بحر عميق، غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي، و﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٣).

ولم أزل في عنفوان شبابي - منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين، إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع.

لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته.

ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته.

ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته.

ولا متكلما إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته.

ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته.

ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته.

ولا زنديقا معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته، في تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي، وديدني، من أول أمري. وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله، وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي؛ حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت عليّ العقائد الموروثة، على قرب عهد سن الصبا، إذ رأيت صبيان النصارى: لا يكون لهم نشوء إلا على التنصّر، وصبيان

اليهود، لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه»[1].

فتحرك باطني إلى حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفي تميز الحق منها عن الباطل اختلافات.

فقلت في نفسي: أولا، إنما مطلوبي: العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم: ما هي؟

فظهر لي: أن العلم اليقيني: هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه ـ مثلا ـ من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا، لم يورث ذلك شكا وإنكارا، فإني إذا علمت، أن العشرة: أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا بل الثلاثة أكثر، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك ـ بسببه ـ في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه. فأما الشك فيما علمته، فلا.

ثم علمت: أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به، ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه، فليس بعلم يقيني». اهـ.

اطلع الغزالي على الثقافات و الفلسفات باتجاهاتها وألوانها المختلفة، من (الباطنية) التي أبطلت دلالات الألفاظ، وأفقدت اللغة مهمتها، في البيان والإفهام.. إلى (علوم الأوائل) أي القدماء، ويعنون بذلك: الفلاسفة وخصوصا اليونانيين منهم، ولا سيما فلسفة (أرسطو) الذي سماه الفارابي (المعلم الأول).

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

وقد تجسدت هذه الفلسفة أوضح ما تكون لدى الفيلسوف الأكبر أبي علي ابن سينا، الذي فتن كثير من الناس به.

واطلع الغزالي كذلك على علم الكلام وتزود منه، وقد كان شيخه إمام الحرمين أحد أعلام هذا العلم، وممثل المدرسة (الأشعرية) التي تبنتها المدرسة (النظامية) التي أسسها الوزير الشهير نظام الملك السلجوقي، وكان الغزالي أبرز أساتذتها.

واطلع الغزالي على الفقه، والتزم مذهب الشافعي، تبعا لبلده وشيوخه، وصنف فيه كتبا اشتهرت فيه، وقال فيها القائل:

خدم المذهب حبر　　　أحسن الله خلاصه
ببسيط ووسيط　　　ووجيز وخلاصة

وشرح وجيزه العلامة الرافعي بكتابه (فتح العزيز في شرح الوجيز) ولكن أظهر ما يتجلى فقه الغزالي حقا في (الإحياء) فقد تحرر فيه من سلطان المذهبية، ونظر في الفقه نظرة رحبة، وقال في (الطهارة): وددت أن يكون مذهبه (أي الشافعي) كمذهب مالك في المياه، وأيد مذهب مالك بسبعة أوجه، وكذلك في مواضع أخرى.

وفي بعض القضايا نظر إليها من أفق واسع، ودلل ووازن واجتهد ورجح، كما في قضايا مثل الغناء أو السماع، والعزلة وغيرهما.

كما اطلع الغزالي على تراث الصوفية، الذي أعجب به كل الإعجاب، وأخذ عليه عقله وقلبه، ورست عند شاطئه سفينته، التي عصفت بها رياح الشك، وأحاطت بها أمواج الحيرة من كل مكان. فوقف عند التصوف، وكان كما قال الشاعر.

فألقت عصاها واستقر بها النوى　　　كما قر عينا بالإياب المسافر!

ومع هذا لم يسلم الغزالي، بعد خوض هذه اللجج العميقة، ومقارعة هذه التيارات و الأمواج المتلاطمة، من أن يصيبه بعض الآثار، أو بعض الجراحات، وإن

لم يعترف هو بشيء من ذلك. ولكن شأن الإنسان أن يتأثر و يؤثر، شعر أم لم يشعر، وإن لم يكن ذلك بطريق مباشر.

وهذا ما جعل تلميذه المغربي القاضي أبا بكر ابن العربي(ت: ٥٤٣هـ) يقول عنه: شيخنا أبو حامد ابتلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم، فما استطاع!

وردد بعده شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) الفكرة بعبارة أخرى حين قال: أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج منهم، فما استطاع[١].

---

(١) انظر كتابنا: (الإمام الغزالي بين مادحيه و ناقديه).

أبو الوليد ابن رشد

ومن النماذج التي تجسد (الانفتاح الثقافي) في تراثنا: الإمام أبو الوليد محمد أحمد بن رشد (الحفيد) المتوفى في أواخر القرن السادس الهجري (ت: ٥٩٥هـ).

وإنما أطلق عليه (الحفيد)؛ لأن جده ابن رشد يشترك معه في اسمه واسم أبيه، وكان من كبار أئمة المالكية، ومن مؤلفاته في فقه المالكية (المقدمات الممهدات) و(البيان والتحصيل) في عشرين مجلدا.

وإذا كان ابن رشد الجد فقيها معدودا من كبار الفقهاء، فإن حفيده لم يكتف بالفقه وحده، مثل جده، بل تعداه إلى ميادين أخرى من ميادين الفكر والثقافة، جعلته يعد أحد (الموسوعيين) الكبار في تاريخنا.

اتفق ابن رشد مع الغزالي في اشتغاله بالفقه، ولكن الغزالي ألف في فقه الشافعية عدة كتب، أشرنا إليها من قبل.

أما ابن رشد فلم يؤلف في فقه المالكية كجده، مع أنه كان قاضيا شرعيا، ولا بد أنه كان يقضي وفق المذهب المالكي المتبوع. مع أنه وعد خلال كتابته لبداية المجتهد أن يكتب في فقه مالك إذا أنسأ الله في أجله، ويسر له الأسباب، ولكن الأقدار لم تمكنه من الوفاء بما وعد. بل ألف كتابا في (الفقه المقارن) كتبه بعقلية الفيلسوف الأصيل، وملكة الفقيه المتضلع، ودل به على سعة اطلاعه على المذاهب، وعلى أسباب اختلافها، معتمدا أساسا على (الاستذكار) لابن عبد البر، كما دل على قدرته على رد الأقوال إلى جذورها، وبيان سبب الخلاف فيها: أهو أصولي أم فقهي أم حديثي؟ إلى آخره.. مع حياد وموضوعية، دون تعصب لمذهب على آخر، ولا لفقيه ضد غيره، وقد جعل للكتاب اسما يدل على غرضه منه، وهو (بداية المجتهد، ونهاية المقتصد) فهو مقدمة لمن يريد أن يلج باب الاجتهاد، إذ لا

يدخله إلا من اطلع على اختلاف العلماء، وعرف تعدد مشاربهم، وتنوع أدلتهم. فمن لم يعرف اختلاف الفقهاء فهيهات أن تشم أنفه رائحة الفقه.

وأما من أراد الاقتصار والاقتصاد، ولم تعل همته إلى بلوغ الاجتهاد، فهذا الكتاب يكفيه، بل هو نهاية ما يبتغيه. وقد ذكر ابن رشد في نهاية (كتاب العتق): أن في قوة هذا الكتاب (البداية) أن يبلغ الإنسان ـ كما قلنا ـ رتبة الاجتهاد، إذا تقدم فعلم من اللغة العربية، وعلم من أصول الفقه ما يكفيه في ذلك. ولذلك رأينا أن أحق الأسماء بهذا الكتاب: أن نسميه كتاب (بداية المجتهد وكفاية المقتصد)[1]. ولكن الكتاب اشتهر بـ(نهاية المقتصد).

وكتاب البداية فريد في بابه، لم يقلد فيه ابن رشد أحدا قبله، ولم ينسج على منواله أحد بعده فيما نعلم. قال عنه ابن الأبار: «أعطى فيه أسباب الخلاف، وعلل فوجه، فأفاد وأمتع به، ولا يعلم في فنه أنفع منه، ولا أحسن مساقا». انتهى. وصدق ابن الأبار فيما وصفه به.

وهو جدير بالدراسة التحليلية في أطروحة أكاديمية أو أكثر، وربما قدم ذلك بعض الدارسين.

وقد وعد ابن رشد في أكثر من موضع من (البداية) أن يؤلف كتابا في الفقه المالكي، فقال مرة في آخر كتاب العتق: «ونحن ننوي ـ إن شاء الله ـ بعد فراغنا من هذا الكتاب، أن نضع في مذهب مالك كتابا جامعا لأصول مذهبه، ومسائله المشهورة، التي تجري في مذهبه مجرى الأصول للتفريع عليها»[2].

وعاد بعد ذلك في آخر (كتاب القذف) وقال: «وإن أنسأ الله في العمر، فسنضع كتابا في الفروع على مذهب مالك بن أنس، مرتبا ترتيبا صناعيا (وفق صناعة المنهج الفقهي) إذ كان المذهب المعمول به في هذه الجزيرة ـ التي هي جزيرة الأندلس ـ حتى يكون به القارئ مجتهدا في مذهب مالك، لأن إحصاء جميع الروايات عندي شيء ينقطع العمر دونه»[3].

---

(١) بداية المجتهد ج٢ ص٢٩١ طبعة دار الفكر ببيروت.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص ٣٣٢.

وقد كان أهلا لأن يفعل ذلك، وقد ورث الفقه المالكي كابرا عن كابر، عن أبيه وجده، وطبقه عمليا في القضاء، ولكن يبدو أن مشاغله العلمية وسعتها وتنوعها لم تمكنه من تحقيق رجائه.

مجال العلميات:

والمجال الثاني الذي برع فيه ابن رشد هو (المجال العلمي) بالمفهوم الغربي الحديث للعلم، وهو ما يقوم على المشاهدة والتجربة، وعلى أساسه كانت النهضة الأوربية الحديثة.

وقد كان هذا (العلم) قديما محسوبا من شعب (الفلسفة). وهي (الفلسفة الطبيعية) و (الفلسفة الرياضية). وإنما انفصل عنها في العصر الحديث، وهو الصواب.

وقد بدأت عناية ابن رشد بهذا النوع من العلوم التجريبية منذ شبابه، فعني بالفلك، ثم عني بالطب، وألف كتابه (المختصر) في (علم الفلك) وكذلك رسالة في (المثلثات الكروية) و (تلخيص السماء والعالم) لأرسطو، و (الجوامع) وغيرها، وكان له فيها نظرات تخالف الاتجاه السائد لبطليموس، وفيها طموح إلى تصحيح علم الفلك السائد في عصره.

وألف كتابه (الكليات) في الطب. وأراد به أن يجمع أصول هذا العلم لا فروعه وتفاصيله، فقد أجل ذلك إلى وقت لاحق. وله في علم الطب نظرات تخالف ما ذهب إليه ابن سينا في تأثير القمر على الإنسان، فهذا أقرب إلى التنجيم منه إلى الطب، كما انتقد الكندي حين ابتعد في علم الأدوية عن التجربة[1].

وقد كان ابن رشد مولعا ببيان (الأصول) أو (الضروري) أو (الكليات) في شتى نواحي المعرفة: الشرعية و العلمية والعملية والفلسفية. وذلك لسببين:

---

(١) انظر كتاب: (ابن رشد سيرة وفكر) للدكتور محمد عابد الجابري، فصل (الاجتهاد في علم الفلك وعلم الطب) ص ٢١٩ وما بعدها. طبعة مركز دراسات الوحدة العربية.

الأول: أهمية الأصول، وضرورتها في التأسيس عليها. فإذا اتضحت الأصول، لم يصعب معرفة الفروع.

والثاني: ضيق وقته عن الدخول في تفصيل الفروع، فيقدم الأهم على المهم.

وكان كتاب ابن رشد في الطب مرجعا للغربيين لعدة قرون، وقد ترجم إلى اللاتينية، واستفاد منه الطلاب والدارسون هناك.

مجال الفلسفيات:

والمجال الثالث الذي برع فيه ابن رشد، وتفوق فيه، وعرف به في الشرق والغرب، هو: مجال الفلسفة، حتى عده بعض الكتاب الغربيين أعظم فلاسفة الإسلام على الإطلاق.

ولقد تجلى ذلك في شروحه على (أرسطو) الملخصة والمفصلة، فهو أعظم شراح أرسطو من غير شك، وعن طريق شروحه وصلت فلسفة أرسطو وعلومه إلى أوربا، وأسهمت في نهضتها.

وقد أخذت هذه الشروح من الفيلسوف المسلم وقتا وجهدا طويلين، فقد كان أرسطو ـ كما يقول مؤرخوه ـ لا يكتب بنفسه محررا أفكاره بقلمه، بل يلقي دروسه في الحديقة ماشيا، ذاهبا وآيبا، وتلاميذه من حوله، ولذا أطلق عليهم (المشاءون) وتلاميذه يكتبون ويصوغون ما سمعوه منه، لذا اختلفت عباراتهم، فكل يكتب حسب ما فهم، أو حسب ما سمع، أو حسب ما استطاع التعبير عنه. ولهذا شكا قراء أرسطو وشراحه من قديم ـ ومنهم ابن رشد ـ كثيرا من غموض عبارته، وعدم وضوح المراد منها بسهولة.

كما تجلت فلسفة ابن رشد في كتاباته الإسلامية حول الفلسفة وما يتعلق بها مثل كتابه الصغير الحجم (فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) وإن كان الدكتور محمد عابد الجابري ـ وهو أستاذ فلسفة ودارس متعمق لابن رشد ـ يحسب هذا الكتاب في الكتب الشرعية، لا في الكتب الفلسفية، وأنه في حقيقته فتوى شرعية في وجوب النظر في كتب الفلسفة أو كتب (الأوائل) كما كانوا يسمونها.

ومثال ذلك كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد أهل الملة) وهو يرد على المتكلمين من الأشاعرة ، الذين شاع مذهبهم في ذلك الوقت ، وأصبح هو المذهب الرسمي لأهل السنة في معظم العالم الإسلامي (مع مذهب الماتريدية وهو قريب من مذهب الأشاعرة ، إلا في مواضع محدودة) .

وكتاب ابن رشد هذا كتاب نافع متوازن ، ويجب الاستفادة منه لطلاب العلم .

وكتابه الثالث ، هو (تهافت التهافت) الذي رد فيه على الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) الذي أحدث ضجة حين ظهوره ، وقيل عنه : أنه ضرب الفلسفة ضربة قاضية ، وقد بينا في كتابنا عن (الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه) أن هذا إن صدق في الشرق ، فلم يصدق في الغرب ، فقد ظهر فيه فلاسفة كبار ، أمثال ابن باجة وابن طفيل ، وآخرهم الفيلسوف الكبير ابن رشد .

كان الغزالي قد خطأ الفلاسفة في سبع عشرة مسألة ، وكفرهم في ثلاث مسائل ، هي : قولهم بقدم العالم ، وأن الله لا يعلم الجزئيات ، وأن المعاد في الآخرة معاد روحاني لا جسماني .

دافع ابن رشد عن الفلاسفة دفاعا حارا ، وانتصر لهم بقوة ، وبين أن الغزالي لم يقرأ (أرسطو) في كتبه ، وإنما قرأ ابن سينا ، وكل ما يذكره عن الفلاسفة إنما هي آراء ابن سينا .

وفي رأيي أن هذا يكفي الغزالي ، فابن سينا كان أكبر فيلسوف إسلامي في وقته ، وكانت فلسفته هي النافقة لدى المثقفين .

وأخذ ابن رشد على الغزالي أنه لم يستخدم (المنهج العلمي) الصارم في الرد على الفلاسفة ، بل أجلب عليهم بخيله ورجله ، وبما يؤمن به ، وما لا يؤمن به ، من أي مذهب ، وأي نحلة تنتحلها فرقة من فرق الإسلام ، وهو ما صرح به الغزالي حين قال : «وأنا لا أدخل عليهم (أي الفلاسفة) إلا دخول مطالب منكر ، لا مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعا (به) بإلزامات مختلفة . تارة ألزمهم مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرّامية ، وطورا مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذابا عن مذهب مخصوص ، بل أجعل جميع الفرق إلبًا واحدا عليهم ، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفاصيل ، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين ، فلنتظاهر عليهم ، فعند الشدائد تذهب الأحقاد» انتهى .

والحق أن ابن رشد في رده على الغزالي، وفي كتبه الفلسفية هذه، يبدو أقرب إلى الاعتدال والمنهجية، وأبعد عن التحيز والتطرف، وإن كان يؤخذ عليه تأثره البالغ بالفلسفة، حتى إنه جعل النظر في كتبها واجبا شرعيا، ولو قال: إنه جائز ومشروع لمن استجمع شروطا معينة من العلماء، لقلنا: هذا معقول ومقبول، أما اعتبار ذلك واجبا شرعيا، وفرضا دينيا، فهو ما يتوقف فيه كثير العلماء[1]، إذ معناه أن الإسلام في حاجة لازمة للنظر الفلسفي، والاطلاع على أرسطو ورفقائه، حتى تثبت صحته بالبرهان العقلي: وهو قول خطير، ولا دليل عليه. والإسلام مستغن بذاته عما سواه، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

ولعل من أسباب هذا هو الإعجاب المنقطع النظير من ابن رشد بأرسطو، حتى إنه رفعه مكانا عليا، وارتقى به في الكمال الإنساني إلى الذروة. وما يدريه ـ رحمه الله ـ أن كثيرا مما قاله أرسطو اليوم ـ في شكل الكون ومركز الأرض والأفلاك والعناصر وغيرها ـ لم يعد مقبولا لدى تلاميذ المدارس الإعدادية. فهي آراء بشر غير معصوم، محكوم بزمانه ومكانه وثقافة عصره، وإن علا كعبه في العلم والفكر.

نقرأ هنا بعض ما كتبه ابن رشد عن شيخه أرسطو، لنرى مدى الإعجاب الذي يكاد يصل إلى حد التقديس، نقلا عن مؤرخ ابن رشد المعجب به غاية الإعجاب الدكتور الجابري، حيث قال: «ولعل أقوى عبارة لابن رشد في الثناء على أرسطو وردت في نصوصه المتوفرة بلغتها الأصلية العربية[2] هي ما

---

(١) يمكن حمل رأي ابن رشد على وجوب استفادة علماء المسلمين ـ وبخاصة كبارهم ومحققوهم ـ من ثقافات الأمم الأخرى، بما فيها من حق لا تخلو منه ثقافة أمة، مع ضرورة الحذر من أباطيل العقائد والفلسفات الأخرى أن تتسرب إلى الثقافة الأساسية للأمة، وتؤثر في مسيرتها العقائدية والفكرية. ولهذا ندعو إلى التفاعل مع الثقافة الغربية، ونحذر من غزو هذه الثقافة لنا، أو تبعيتنا لها.

(٢) هناك عبارات نقلها رينان عن ترجمات لاتينية لنصوص ابن رشد مثل هذا النص المنقول من كتاب (الكون والفساد) De gene Animal 1,1 والذي ورد فيه: (نحمد الله حمدا لا نهاية له الذي خلق هذا الرجل بالفطرة للفضل وأنزله المرتبة العليا في الكمال الإنساني لم يبلغها أحد في أي زمن. فإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ (الحديد: ٢١). وينقل عن ترجمة لاتينية =

كتبه، عندما كان بصدد عرض وجهة نظر أرسطو في (الهالة وقوس قزح والعمود)، في تلخيصه لكتاب الآثار العلوية لأرسطو، حينما حرص على التمييز بين ما يعطيه النظر في هذه الظواهر لصاحب العلم الطبيعي وما يعطيه لصاحب (علم المناظر) (علم الضوء)، باعتبار أن الأمر يتعلق بمنظورين مختلفين، أحدهما ينتمي إلى الطبيعيات والآخر إلى الرياضيات». ولذلك ـ يقول ابن رشد ـ فـ«من جمع النظرين فقد أخطأ كما فعل ابن الهيثم، فإن النظر في ذلك لصناعتين مختلفتين، وليس يدخل ما تبين من ذلك في صناعة المناظر على هذه الصناعة (العلم الطبيعي)». وهكذا فإذا فهمت وجهة نظر أرسطو داخل العلم الطبيعي وحده، ارتفعت الشكوك التي يمكن أن تثار عليه في هذه المسألة. ويقول ابن رشد: «فهكذا ينبغي أن يفهم الأمر عن أرسطو في هذه الأشياء، لا أنه قصر في ذلك وترك شيئا يجب ذكره في هذا العلم [وغيره]، فسبحان الذي خصه بالكمال الإنساني، وكان المدرك عنده بسهولة هو المدرك عند الناس بعد فحص طويل وصعوبة كثيرة، والمدرك عند غيره بسهولة خلاف المدرك عنده. ولذلك كثيرا ما ينشأ للمفسرين شكوك على أقاويل هذا الرجل، ثم يتبين بعد زمن طويل صواب قوله، وتقصير نظر الغير بالإضافة إلى نظره. وبهذه القوة الإلهية التي وجدت فيه كان هو المجدد للحكمة والمتمم لها، وذلك شيء يقل وجوده في الصنائع، أي صناعة كانت، فكيف في هذه الصناعة العظمى؟ وإنما قلنا: إنه المجدد والمتمم، لأن ما سلف لغيره في هذه الأشياء، ليست تستأهل أن تجعل شكوكا على هذه الأشياء، فضلا عن أن تكون مبادئ. وإذ قد تبين هذا فإذن ليس في أقاويل أرسطو شيء يحتاج إلى تتميم، كما زعم أبو بكر ابن الصائغ. نعم فيها أشياء كثيرة لم يفهمها هو ولا نحن بعده، وبخاصة في الكتب التي لم تصل إلينا فيها أقاويل المفسرين. ولذلك كان الواجب عليه أن يستعمل الفحص عن كلامه لا بتلك الأشياء الخارجة عن طريقته في التعليم» انتهى[1].

= لكتابه (تهافت التهافت) عبارة لا توجد في النص الأصلي العربي ورد فيها: (إن مذهب أرسطو هو الحقيقة المطلقة، وذلك لبلوغ عقله أقصى حدود العقل البشري، ولذا فإن من الحق أن يقال عنه. إن العناية الإلهية أنعمت به علينا لتعليمنا ما يمكن أن نتعلم» رينان. نقلا عن الجابري (ابن رشد: سيرة وفكر) ص ١٧١.

(١) ابن رشد. تلخيص الآثار العلوية تحقيق جمال الدين العلوي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ١٩٩٤، ص١٤٥ ـ ١٤٦. وقد أورد مونك نصا قريبا جدا من هذا نقله من مقدمة ابن رشد لشرح السماع الطبيعي (كتاب الطبيعة) لأرسطو ـ المفقود أصله العربي ـ يقول فيه فيلسوف قرطبة: «مؤلف =

هذه عبارات ابن رشد الفيلسوف الكبير في (أرسطو): قمة في الكمال العلمي والفكري، لا يستدرك عليه، ولا يحتمل الخطأ، ولا يقبل النقد، وقد خطأ ابن رشد العالم المسلم العظيم الحسن ابن الهيثم، لمخالفته لأرسطو، وخطأ ابن الصائغ لنقده لأرسطو، فالكامل ـ بل البالغ الرّتبة العليا في الكمال ـ لا يخالف ولا ينقد، بل على مخالفه أو ناقده أن يتهم نفسه أوّلا، فإن مذهبه هو (الحقيقة المطلقة)!!

فماذا ترك لمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي بعثه الله في الناس رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وقد علمه الله ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما؟!

ألا ليت فيلسوفنا وعالمنا الكبير ابن رشد، أعطى بعض جهده ووقته للشرعيات، مثلما أعطى للعقليات والفلسفيات، إذن لكان عطاؤه أجزل، ونفع الأمة به أكمل، ولكن هكذا ما كان، وكل ميسر لما خلق له، ومجزيٌّ بنيته، «وإنما لكل امرئ ما نوى»، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (النساء: ٤٠).

=هذا الكتاب هو أرسطو بن نيقوماخ، فيلسوف اليونان المشهور، الذي ألف أيضا كتبا أخرى في هذا العلم (الطبيعي) كما ألف كتبا في المنطق وكتب مقالات في ما بعد الطبيعة. وهو المجدد (renouveler) لهذه العلوم الثلاثة، أعني المنطق والعلم الطبيعي وعلم ما بعد الطبيعة، وهو المتمم لها. وإنما قلنا إنه المجدد لها لأن ما سلف لغيره في هذه الأشياء لا يستأهل أن يكون مبادئ لهذه العلوم...؛ وعندما ظهرت كتب هذا الرجل ترك الناس كتب جميع من سبقوه. ومن بين الكتب التي ألفت قبله والتي هي في هذه الأشياء أقرب من غيرها إلى الطريقة العلمية كتب أفلاطون، مع أن ما يوجد فيها ليس إلا شيئا يسيرا بالمقارنة مع ما نجده في كتب أرسطو، فضلا عن عدم تمامها من جهة العلم. وقلنا: إنه المتمم لها لأنه لا أحد ممن جاء بعده إلى زماننا هذا، أعني منذ ما يقرب من خمسة عشر قرنا، استطاع أن يضيف لما قاله شيئا ذا بال. وإنه لشيء خارق للعادة وعجيب حقا أن يجتمع ذلك كله لشخص واحد. وذلك إنما يكون للكائن الإلهي لا للموجود البشري. ولذلك دعاه القدماء بالإلهي». الجابري. المصدر السابق ص١٧٢.

المحتويات

الصفحة

رقم الإيداع ١٣١٨٥/٢٠٠٠
الترقيم الدولى 1 - 0658 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



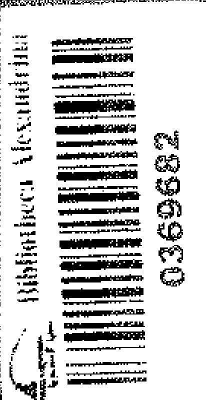
بين الانفتاح والانغلاق

ما زالت المسألة الثقافية هي الشغل الشاغل للناس منذ بواكير النهضة إلى اليوم ولم يبرح الجدل مستعراً حول طبيعة الثقافة، ما هي؟ وما حقيقتها؟ وهل هناك فرق بين الثقافة والحضارة؟ وهل هناك ثقافة كونية أو تظل لكل أمة ثقافتها الخاصة بها؟ وما هي إذن ثقافتنا المعبرة عنا؟ هي عربية أم إسلامية أم هما معاً؟ وهل الثقافة الإسلامية هي الثقافة الدينية، أو هي أوسع مدى منها؟ وما خصائص ثقافتنا العربية الإسلامية؟ هل هذه الثقافة ثقافة منغلقة، كما قد يتوهم المتوهمون، أو يشيع ذوو الهوى؟ أو هي ثقافة متفتحة على الثقافات؟ وهل معنى ذلك أن هناك انفتاحاً مقبولاً، وانفتاحاً محذوراً؟ عن هذه الأسئلة المهمة تجيب هذه الدراسة الموجزة، محذرة من ثلاثة أنواع من الانفتاح: الانفتاح قبل التهيؤ والنضج، والانفتاح المتساهل في الأخذ والاقتباس، والانفتاح المبهور بالغير، مبينة أن الانفتاح الحق هو الذي يبقي على هوية الأمة وثوابتها، ويأخذ ما يأخذ من غيرها، دون أن يمس جو

ومهمة هذه الدراسة أن توضح هذه المعاني تأصيلاً

آملين أن تفيد هذه الدراسة القارئ العربي والمسلم و

وعيه.



القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر